عبد الرحمن الكواكبي

طبائع الاستبداد

ومصارع الاستعباد

وهي كلمات حق وصيحة في واد ،
ان ذهبت اليـــوم مع الريح ،
لقـــد تذهب غداً بالاوتاد ...

طبعة جديدة
منقحة ومضافة بقلم المؤلف

السيد عبد الرحمن الكواكبي

١٢٦٥ — ١٣٢٠ هـ = ١٨٤٨ — ١٩٠٢ م

بقلم فقيد الادب الدكتور احمد امين ، نقلا عن كتابه

(زعماء الاصلاح في العصر الحديث)

من بيت في حلب يعتز بنسبه وحسبه وعلمه وجاهـــه وماله ، فاسرة الكواكبي كانت فيها نقابة الاشراف في حلب ، ولها مدرسة تسمى المدرسة الكواكبية ، وابوه احـــد المدرسين في الجامع الاموي بحلب والمدرسة الكواكبية فيها .

تعاون على تربيته بيته وما في تقاليده من عزة واباء وشمم وانفـــة من الصغائر ، وخالة له تعهدته بعـد وفاة والدته وهـو صغير ، وكانت من نوادر النساء في الشرق ، عرفت بالادب والكياسة وكبر العقل . فطرته التي فطر عليها ميل الى الحق ، وحب الخير ، والاستجابة للتربية الصالحة .

كل هذا جعل منه رجلا يستعصى على ناقـد الاخلاق نقـده ، مؤدب

اللسان فلا تؤخذ عليه هفوة ، يزن الكلمة قبل ان ينطق بها وزنا دقيقاً ، حتى لو القي عليه السلام لفكر في الاجابة؛ متزن في حديثه ، اذا قاطعه احد سكت وانتظر حتى يتم حديثه ، ثم يصل ماانقطع من كلامه ، فيؤدب بذلك محدثه ، نزيه النفس لايخدعها مطمع ولايغريها منصب ، شجاع فـــيما يقول ويفعل ، مهما جرّت عليه شجاعته من سجن وضياع مال وتشريد ، وهو ـ مع انفته وعزته وصلفه على الكبراء ـ متواضع للبائسين وللفقراء ، يقف دائماً بجانب الضعفاء يشع على من يجالسه الاتزان والتفكير الهادئ ، وحب الحق ونصرة المبدأ ، والتضحية للفضيلة .

تعلم كما كان يتعلم نـاشئة زمانه الدينيون ، لغة عربية ودين في مدرسة اسرته بحلب ـ « المدرسة الكواكبية » ـ وكانت مدرسة تسير على الطريقة الازهرية فيما يقرأ من كتب ، وما يتبع من منهج ، ولكنه اكمل نفسه بقراءته بعض العلوم الرياضية والطبيعية ، واحضر له والده من علمه الفارسية والتركية ، وطالع بنفسه كثيراً من الكتب التاريخية ، وعني بدراسة قوانين الدولة العثمانية .

فلما اتم دراسته انغمس في الحياة العملية ، وتنوعت اعماله ، وتبـاينت اتجاهاته فمن محرر لجريدة رسمية الى رئيس كتاب المحكمة الشرعية ، الى قاض شرعي في بلدة من البلاد السورية ، الى رئيس البلدية . ثم هو بين الحين والحين يعتزل الوظائف الحكومية فينشئ لنفسه جريدة في (حلب) اسمها « الشهباء » او يشتغل بالاعمال التجـارية ، او يقوم بمشروعات عمرانية ، ومن كل ذلك يستفيد خبرة وتجربة بالحياة . وفي كل الاعمال الحكومية والحرة يصطدم

بنظام الدولة ، وباستبداد الحكام ، وفساد رجال الادارة ، فينازلهم وينازلونه ويحاربهم ويحاربونه ، وينتصر عليهم حينا ، وينتصرون عليه حينا ، وسلاحه دائماً النزاهة والعدل والاستقامة ، وسلاحهم دائماً الدسائس واتهامه بخروجه على النظام ، ودعوته للشغب ، وما شاكل ذلك مما هو عادة الظالمين . وكانت البلاد التي يعيش فيها موبوءة بحكم « عبد الحميد » لايستطيع ان يعيش فيها حر صريح ، ولاينجح فيها تاجر نزيه ، ولا موظف جريء مستقيم ، وهذا النوع من الحكم عدو كل كفاية ، وقاتل كل نبوغ .

ارتفع شأنه في بلده ، فكان يقصده اصحاب الحاجات لقضائها ، والمشاكل لحلها ، ورجال الحكومة انفسهم يستشيرونه فيما غمض عليهم ، وهو في كل ذلك جريء فيما يقول ، لايقر ظالما على ظلمه ، ولا يسالم جائرا لمنصبه اوجاهه من اجل هذا غاضب (عارف باشا) والي حلب واخذ يعدد سيئاته وينقم عليه تصرفاته ويحرض الناس على رفع صوتهم بالشكوى منه لرؤسائه في الآستانة ، فانتقم (عارف باشا) لنفسه ، فزور على (الكواكبي) اوراقا ، واتهمه بانه يسعى لتسليم (حلب) لدولة اجنبية ، وحبسه وطلب محاكمته ، فبذل الكواكبي ورجاله جهدا كبيراً ليحاكم في ولاية غير ولاية « حلب » . وحوكم في بيروت فحكم ببراءته ، وظهرت خيانة الوالي ومكايده فعزل .

وكان من اعداء « الكواكبي » ايضا « ابوالهدى الصيادي » الذي سبق وصفه في ترجمة « عبد الله نديم » لان « الكواكبي » ابى الاعتراف بصحة نسبه . ولاعتداء « ابي الهدى » على بيتهم بأخذ نقابة الاشراف لنفسه منهم ،

فكان « ابو الهدى » ايضاً يدس له ، ويغرى ولاة الامر به .

فكان من نتيجة محاكمته على التهمة التي اتهمه بها « عارف باشا » ومن معاكسة « ابي الهدى » واعوانه له حتى في تجارته ، ان خسر الوف الجنيهات من ماله ، فاحتمل ذلك بنفس قوية لاتجزع ولا تتحول .

وانصع صفحة في تاريخ حياته قـــوة شعوره بفساد حال المسلمين ، وتخصيص جزء كبير من حياته في تعرف احوالهم في جميع اقطار الارض وتشخيص امراضهم وتلمس العلاج لهم . فعكف على مطالعة تاريخهـــم في ماضيهم وحاضرهم ، وما كتبه الكتـاب المحدثون في ذلك فى الكتب والمجلات والجرائد ، ودرس احوال المسلمين في المملكة العثمانية . ثم رحلته الى كثير من بلاد المسلمين ، فساح في سواحل افريقية الشرقيـة ، وسواحـل آسية الغربية ، ودخل بلاد العرب وجال فيهـا ، واجتمـع برؤساء قبائلها ، ونزل بالهند وعرف حالها ، وفي كل بلد ينزلها يدرس حالتها الاجتماعية والاقتصادية وحالتها الزراعية ، ونوع تربتها وما فيها من معادن ونحو ذلك ، دراسة دقيقة عميقة . ونزل مصر واقام بها ، وكان في نيته رحلة اخرى الى بلاد المغرب يتم فيها دراسته ولكنه عاجلته منيته .

نشر نتيجة دراسته في مقالات كتبت في المجلات والجرائد ، ثم جمعت فى كتابين : اسم احدهما « طبائـع الاستبـداد » ، والآخر « ام القرى » : الاول في نقد الحكومات الاسلامية ، والثاني اغلبه في نقـــد الشعوب الاسلامية .

لقد كان الحديث في مثل هذه الموضوعات التي مسها « الكواكبي » في « طبائع الاستبداد » و « ام القرى » من الموضوعات المحرمة ، لانها تمس نظام الحكم من قريب ، وتفهم الشعوب حقوقهم وواجباتهم ، وتقفهم على مناحي الظلم والعدل ، وتهيئهم للمطالبة بالحقوق اذا سلبت ، والقيام بالواجبات اذا اهملت ، وهذا ابغض شيء لدى الحاكم المستبد . لذلك رأينا الشرق من بعد ابن خلدون اغلق هذا الباب ، ولم يفتحه اي باحث بعده وصار كتاب ابن خلدون مقدمة بلانتيجة . والعلوم التي حوفظ عليها واستمرت دراستها ، هي علوم النحو والصرف واللغة والفقه ، لانها لاتمس الحاكم من قريب ولا بعيد ، ولا تفهم الناس اين هم من حاكمهم واين حاكمهم منهم . والادب مداح للملوك والحكام ، يجعل ظلمهم عدلا وفسادهم صلاحا ، فاذا اعطاهم الحاكم قليلاً مما سلبه من امتهم هللوا وكبروا ، وعجبوا من كرمه الحاتمي ، وسخائه الذي لانظير له ، والمؤرخون لايؤرخون الا شخصه في حياته واعماله وحروبه وزوجاته واولاده ، اما الشعب فلا شيء الا ان يكون مزرعة للحكام . واحب علم الى الحكام المستبدين وادعاهم لنصرته هو مالا يتصل بالحكم ونظامه ، ورجال الدين المقربون هم الذين يدعون الى التسليم بالقضاء والقدر ، ويستطيعون ان يولدوا المعاني من مثل « السلطان ظل الله في ارضه » . اما علم الاجتماع وعلم السياسة والاقتصاد فلم يعرفه الشرق بعد ابن خلدون بتاتا .

كان هذا في الشرق ، على حين ان الغربيين بدأوا بعد ابن خلدون يبحثون في المجتمعات بحثا واسعاً ، يتعرفون علل الجماعات وامراضها وانواع

الحكومات ومزايا كل شكل وعيوبه ، ويتحررون من القيود ، ولا يعبئون بالتضحيات في سبيل الحريات ، ويبني لاحقهم على ماوصل اليه سابقهم .

وبلغ الضيق في الشرق منتهاه في عهد السلطان عبد الحميد ، ولكن شدة الضغط تولد الانفجار ، والقسوة تفتق الحيلة وتوالى الاضطهاد يولد البغضاء ، فكثرت في هذا العهد الجمعيات السرية تعمل لتحرير البلاد العثمانية من الظلم ، وتعمل لوضع نظام ديموقراطي لايكون فيه السلطان الحاكم بامره ، وفر كثير من العثمانيين الى اوروبا يدرسون نظم الحكم الاوروبي وما وصلت اليه اوروبة من البحوث الاجتماعية ، واخذوا يكتبون ذلك في جرائدهم ومجلاتهم التي يحررونها خارج الحدود العثمانية ، ومنها تتسرب الى البلاد نفسها . واخذت مصر بعد انفصالها من حكم العثمانيين تؤوي الاحرار ، وتؤيد القول في نقد نظام الحكم ، وظهرت في الجرائد والمجلات مقالات بالعربية في تشريح احوال الجماعات واصول الحكومات ، وترجم الى العربية « اصول النواميس والشرائع » لمنتسكيو . وبدأت موجات البحث الاجتماعي في اوروبا تصل الى الشرق من طريق الترجمة وطريق المثقفين في اوروبة .

في هذا الوسط طلع الكواكبي ، وكان ظهوره بكتابيه جرأة كبيرة . لقد استفاد مما نقل عن الغرب ، ولم يكن يعرف لغة اوروبية ، انما يعرف العربية والتركية والفارسية ، فاستفاد مما نقل اليها ، ومما كان يترجم له في هذا الباب خاصة . وقد ظهر اثر هذا الاقتباس في كتابه « طبائع الاستبداد » اما كتابه « ام القرى » فبحث مبتكر يدل على كبر عقله ، وقوة تفكيره ، وسعة اطلاعه ، وصدق غيرته على العالم الاسلامي .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله خالق الكون على نظام محكم متين ، والصلاة والسلام على انبيائه العظام هداة الامم الى الحق المبين ، لاسيما منهم على النبي العربي الذي ارسله رحمة للعالمين ليرقي بهم معاشا ومعادا على سلم الحكمة الى عليين .

اقول وانا مسلم عربي مضطر للاكتتام شأن الضعيف الصادع بالامر ، المعلن رأيه تحت سماء الشرق ، الراجي اكتفاء المطالعين بالقول عمن قال وتعرف الحق في ذاته لابالرجال ، انني في سنة ثماني عشر وثلاثمائة والف هجرية هجرت دياري سرحا في الشرق ، فزرت مصر واتخذتها لي مركزا ارجع اليه مغتنماً عهد الحرية فيها على عهد عزيزها حضرة سمي عم النبي (العباس الثاني) الناشر لواء الامن على اكناف ملكه ، فوجدت افكار سراة القوم في مصر كما هي في سائر الشرق خائضة عباب البحث في المسألة الكبرى اعني المسألة الاجتماعية في الشرق عموما وفي المسلمين خصوصاً ، اعم كسائر الباحثين كل يذهب مذهباً في سبب الانحطاط وفي ماهو الدواء . وحيث اني قد تمحص عندي ان اصل هذا الداء هو الاستبداد السياسي ودواؤه دفعه بالشوري الدستورية .

وقد استقر فكري على ذلك ـ كما ان لكل نبأ مستقر ـ بعد بحث ثلاثين

عاما ... بحثا اظنه كاد يشمل كل مايخطر على البال من سبب يتوهم فيه الباحث عند النظرة الاولى ، انه ظفر باصل الداء او باهم اصوله ، ولكن لايلبث ان يكشف له التدقيق انه لم يظفر بشيء . او ان ذلك فرع لاصل ، او هو نتيجة لا وسيلة .

فالقائل مثلا : ان اصل الداء التهاون في الدين ، لايلبث ان يقف حائراً عندما يسائل نفسه لماذا تهاون الناس في الدين ؟ والقائل : ان الداء اختلاف الاراء ، يقف مبهوتاً عند تعليل سبب الاختلاف . فان قال سببه الجهل ، يشكل عليه وجود الاختلاف بين العلماء بصورة اقوى واشد .. وهكذا يجد نفسه في حلقة مفرغة لامبدأ لها فيرجع الى القول : هذا مايريده الله بخلقه ، غير مكترث بمنازعة عقله ودينه له بان الله حكيم عادل رحيم . . . .

واني اراحة لفكر المطالعين اعدد لهم المباحث التي طالما اتعبت نفسي في تحليلها وخاطرت حتى بحياتي في درسها وتدقيقها ، وبذلك يعلمون اني ماوافقت على الرأي القائل بان اصل الداء هو الاستبداد السياسي الا بعد عناء طويل يرجح اني قد اصبت الغرض . وارجو الله ان يجعل حسن نيتي شفيع سيئاتي ، وهاهي المباحث :

في زيارتي هذه لمصر ، نشرت في اشهر جرائدها بعض مقالات سياسية تحت عنوانات الاستبداد ، ماهو الاستبداد وما تأثيره على الدين ، على العلم ، على التربية ، على الاخلاق ، على المجد ، على المال . . الى غير ذلك .

ثم في زيارتي مصر ثانية اجبت تكليف بعض الشبيبة ، فوسعت تلك المباحث خصوصاً في الاجتماعيات كالتربية والاخلاق واضفت اليها طرائق التخلص من الاستبداد ، ونشرت ذلك في كتاب سميته (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) وجعلته هدية مني للناشئة العربية المباركة الابية المعقودة آمال الامة بيمن نواصيهم . ولا غرو فلا شباب الا بالشباب .

ثم في زيارتي هذه وهي الثالثة ، وجدت الكتاب قد نفذ في برهة قليلة فاحببت ان اعيد النظر فيه وازيده زيدا مما درسته فضبطته ، او ما اقتبسته وطبقته . وقد صرفت في هذا السبيل عمرا عزيزاً وعناء غير قليل . . .وانا لاقصد في مباحثي ظالما بعينه ولا حكومة او امة مخصصة ، انما اردت بيان طبائع الاستبداد وما يفعل ، وتشخيص مصارع الاستعباد وما يقضيه ويمضيه على ذويه . . . ولي هناك قصد آخر وهو التنبيه لمورد الداء الدفين ، عسى يعرف الذين قضوا نحبهم ، انهم هم المتسببون لما حل بهم ، فلا يعتبون على الاغيار ولا على الاقدار ، انما يعتبون على الجهل وفقد الهمم والتواكل . . وعسى الذين فيهم بقية رمق من الحياة يستدركون شأنهم قبل الممات . . .

وقد تخيرت في الانشاء اسلوب الاقتضاب وهو الاسلوب السهل المفيد الذي يختاره كتاب سائر اللغات ابتعادا عن قيود التعقيد وسلاسل التأصيل والتفريع . هذا واني اخالف اولئك المؤلفين ، فلا اتمنى العفو عن الزلل ، انما اقول :

هذا جهدي ، وللناقد الفاضل ان يأتي قومه بخير منه . فما انا الا فاتح باب صغير من اسوار الاستبـــداد . عسى الزمان يوسعه ، والله ولي المهتدين .

١٣٢٠ — ١٩٠٢

عبد الرحمن الكواكبي

مقدمة

لاخفاء ان السياسة علم واسع جداً يتفرع الى فنون كثيرة ومباحث دقيقة شتى . وقلما يوجد انسان يحيط بهذا العلم ، كما انه قلما يوجد انسان لايتحكك فيه .

وقد وجد في كل الامم المترقية علماء سياسيون تكلموا في فنون السياسة ومباحثها استطراداً في مدونات الاديان او الحقوق او التاريخ او الاخلاق او الادب. ولا تعرف للاقدمين كتب مخصوصة في السياسة لغير مؤسسي الجمهوريات في الرومان واليونان ، وانما لبعضهم مؤلفات سياسية اخلاقية ككليلة ودمنة ورسائل غوريغوريوس ومحررات سياسية دينية كنهج البلاغة وكتاب الخراج .

واما في القرون المتوسطة فلا تؤثر ابحاث مفصلة في هذا الفن لغير علماء الاسلام ؛ فهم الفوا فيه ممزوجا بالاخلاق كالرازي والطوسي والغزالي والعلائي وهي طريقة الفرس ، وممزوجا بالادب كالمعري والمتنبي وهي طريقة العرب ، وممزوجا بالتاريخ كابن خلدون وابن بطوطة وهي طريقة المغاربة .

اما المتأخرون من اهل اوروبا ثم اميركا فقد توسعوا في هذا العلم والفوا

فيه كثيرا واشبعوه تفصيلا حتى انهم افردوا بعض مباحثه في التأليف بمجلدات ضخمة، وقد ميزوا مباحثه الى سياسة عمومية ، وسياسة خارجية ، وسياسة ادارية ، وسياسة اقتصادية ، وسياسة حقوقية الخ. وقسموا كلا منها الى ابواب شتى واصول وفروع .

واما المتأخرون من الشرقيين ، فقد وجد من الترك كثيرون الفوا في اكثر مباحثه تآليف مستقلة وممزوجة مثل احمد جودة باشا ، وكمال بك ، وسليمان باشا ، وحسن فهمي باشا ، والمؤلفون من العرب قليلون ومقلون ، والذين يستحقون الذكر منهم فيما نعلم رفاعة بك ، وخير الدين باشا التونسي واحمد فارس ، وسليم البستاني ، والمبعوث المدني .

ولكن يظهر لنا الان ان المحررين السياسيين من العرب قد كثروا، بدليل مايظهر من منشوراتهم في الجرائد والمجلات في مواضيع كثيرة . ولهذا لاح لهذا العاجز ان اذكر حضراتهم على لسان بعض الجرائد العربية بموضوع هو اهم المباحث السياسية ، وقلّ من طرق بابه منهم الى الآن . فادعوهم الى ميدان المسابقة في خير خدمة ينيرون بها افكار اخوانهم الشرقيين، وينبهونهم لاسيما العرب منهم لما هم عنه غافلون ، فيفيدونهم بالبحث والتعليل وضرب الامثال والتحليل ماهو (داء الشرق وما دواؤه) ؟

ولما كان تعريف علم السياسة بانه هو « ادارة الشؤون المشتركة بمقتضى الحكمة » يكون بالطبع اول مباحث السياسة واهمها بحث (الاستبداد) اي التصرف في الشؤون المشتركة بمقتضى الهوى .

واني ارى ان المتكلم في الاستبداد عليه ان يلاحظ تعريف وتشخيص « ماهو الاستبداد ؟ ماسببه ؟ ماعراضه ؟ ماسيره ؟ ماانذاره ؟ مادواؤه ؟ » وكل موضوع من ذلك يتحمل تفصيلات كثيرة وينطوى على مباحث شتى من امهاتها : ماهي طبائع الاستبداد ؟ لماذا يكون المستبد شديد الخوف ؟ لماذا يستولى الجبن على رعية المستبد ؟ماتأثير الاستبداد على الدين ؟ على العلم ، على المجد ، على المال ، على الاخلاق على الترقي ، على التربية ، على العمران ؟ من هم اعوان المستبد ؟ هل يتحمل الاستبداد ؟ كيف يكون التخلص من الاستبداد ؟ بماذا ينبغي استبدال الاستبداد ؟ .

قبل الخوض في هذه المسائل يمكننا ان نشير الى النتائج التي تستقر عندها افكار الباحثين فى هذا الموضوع وهي نتائج متحدة المدلول مختلفة التعبير على حسب اختلاف المشارب والانظار في الباحثين وهي :

يقول المادي : الداء القوة والدواء المقاومة .

ويقول السياسي : الداء استعباد البرية والدواء استرداد الحرية

ويقول الحكيم : الداء القدرة على الاعتساف والدواء الاقتدار على الاستنصاف .

ويقول الحقوقي : الداء تغلب السلطة على الشريعة والدواء تغليب الشريعة على السلطة .

ويقول الرباني : الداء مشاركة الله في الجبروت والدواء توحيد الله حقاً .

وهذه اقوال اهل النظر . واما اهل العزائم :

فيقول الابي : الداء مد الرقاب للسلاسل والدواء الشموخ عن الذل .

ويقول المتين : الداء وجود الرؤساء بلا زمام والدواء ربطهم بالقيود الثقال .

ويقول الحر : الداء التعالي على الناس باطلا والدواء تذليل المتكبرين .

ويقول المفادى : الداء حب الحياة والدواء حب الموت .

ماهو الاستبداد

الاستبداد لغة هو غرور المرء برأيه والانفة عن قبول النصيحة او الاستقلال في الرأي وفي الحقوق المشتركة .

ويراد بالاستبداد عند اطلاقه استبداد الحكومات خاصة لانها اعظم مظاهر اضراره التي جعلت الانسان اشقى ذوي الحياة . واما تحكم النفس على العقل ، وتحكم الاب والاستاذ والزوج ، ورؤساء بعض الاديان ، وبعض الشركات ، وبعض الطبقات ، فيوصف بالاستبداد مجازا او مع الاضافة .

الاستبداد في اصطلاح السياسيين هو تصرف فرد او جمع في حقوق قوم بالمشيئة وبلا خوف تبعة ، وقد تطرق مزيدات على هذا المعنى الاصطلاحي فيستعملون في مقام كلمة (استبداد) كلمات : استعباد ، واعتساف ، وتسلط ، وتحكم . وفي مقابلتها كلمات : مساواة ، وحس مشترك ، وتكافؤ ، وسلطة عامة . ويستعملون في مقام صفة (مستبد) كلمات : جبار ، وطاغية ، وحاكم بامره ، وحاكم مطلق . وفي مقابلة (حكومة مستبدة) كلمات : عادلة ، ومسئولة ، ومقيدة ، ودستورية . ويستعملون في مقام وصف الرعية (المستبد عليهم) كلمات : اسرى ، ومستصغرين ، وبوساء ، ومستنبتين [1] ، وفي مقابلتها : احرار ،

---

[1] الاستنبات او التنبت من اصطلاحات الفرنج يريدون به الحياة الشبيهة بحياة النبات .

واباء ، واحياء ، واعزاء .

هذا تعريف الاستبداد باسلوب ذكر المرادفات والمقابلات، واما تعريفه بالوصف فهو ان الاستبداد صفة للحكومة المطلقة العنان فعلا او حكما التي تتصرف في شؤون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب محققين. وتفسير ذلك هو كون الحكومة اما هي غير مكلفة بتطبيق تصرفها على شريعة ، او على امثلة تقليدية ، او على ارادة الامة ، وهذه حالة الحكومات المطلقة . او هي مقيدة بنوع من ذلك ولكنها تملك بنفوذها ابطال قوة القيد بما تهوى ، وهذه حالة اكثر الحكومات التي تسمي نفسها بالمقيدة او بالجمهورية.

واشكال الحكومة المستبدة كثيرة ليس هذا البحث محل تفصيلها. ويكفي هنا الاشارة الى ان صفة الاستبداد ، كما تشمل حكومة الحاكم الفرد المطلق الذي تولى الحكم بالغلبة او الوراثة ، تشمل ايضاً الحاكم الفرد المقيد المنتخب متى كان غير مسؤول ، وتشمل حكومة الجمع ولو منتخبا لان الاشتراك في الرأي لا يدفع الاستبداد وانما قد يعد له الاختلاف نوعا ، وقد يكون عند الاتفاق اضر من استبداد الفرد . ويشمل ايضاً الحكومة الدستورية المفرقة فيها بالكلية قوة التشريع عن قوة التنفيذ وعن القوة المراقبة لان الاستبداد لا يرتفع مالم يكن هناك ارتباط في المسؤولية فيكون المنفذون مسؤولين لدى المشرعين ، وهؤلاء مسؤولون لدى الامة ، تلك الامة التي تعرف انها صاحبة الشأن كله وتعرف ان تراقب وان تتقاضى الحساب .

واشد مراتب الاستبداد التي يتعوذ بها من الشيطان هي حكومة الفرد

المطلق ، الوارث للعرش ، القائد للجيش ، الحائز على سلطة دينية . ولنا ان نقول كلما قل وصف من هذه الاوصاف خف الاستبداد الى ان ينتهي بالحاكم المنتخب الموقت المسؤول فعلا . وكذلك يخف الاستبداد طبعاً كلما قل عدد نفوس الرعية وقل الارتباط بالاملاك الثابتة وقل التفاوت في الثروة وكلما ترقى الشعب في المعارف .

ان الحكومة من اي نوع كانت لاتخرج عن وصف الاستبداد مالم تكن تحت المراقبة الشديدة والاحتساب الذي لاتسامح فيه كما جرى في صدر الاسلام في مانقم على عثمان ثم على علي رضي الله عنهما ، وكما جرى في عهد هذه الجمهورية الحاضرة في فرنسا في مسائل النياشين وبناما ودريفوس .

ومن الامور المقررة طبيعة وتاريخياً انه مامن حكومة عادلة تأمن المسئولية والمؤاخذة بسبب غفلة الامة او التمكن من اغفالها الا وتسارع الى التلبس بصفة الاستبداد ، وبعد ان تتمكن فيه لاتتركه وفي خدمتها احدى الوسيلتين العظيمتين : جهالة الامة ، والجنود المنظمة . وهما اكبر مصائب الامم واهم معائب الانسانية ، وقد تخلصت الامم المتمدنة نوعا من الجهالة ، ولكن بليت بشدة الجندية الجبرية العمومية ؛ تلك الشدة التي جعلتها اشق حياة من الامم الجاهلة والصق عاراً بالانسانية من اقبح اشكال الاستبداد حتى ربما يصح ان يقال ان مخترع هذه الجندية اذا كان هو الشيطان فقد انتقم من آدم في اولاده اعظم مايمكنه ان ينتقم ! نعم اذا دامت هذه الجندية التي مضى عليها نحو قرنين الى قرن آخر ايضاً تنهك تجلد الامم وتجعلها تسقط دفعة واحدة.

ومن يدري كم يتعجب رجال الاستقبال من ترقي العلوم في هذا العصر ترقياً مقرونا باشتداد هذه المصيبة التي لاتترك محلا لاستغراب اطاعة المصريين للفراعنة في بناء الاهرامات سخرة ، لان تلك لاتتجاوز التعب وضياع الاوقات ، واما الجندية فتفسد اخلاق الامة حيث تعلمها الشراسة والطاعة العمياء والاتكال وتميت النشاط وفكرة الاستقلال وتكلف الامة الانفاق الذي لايطاق ،وكل ذلك منصرف لتأييد الاستبداد المشؤوم : استبداد الحكومات القائدة لتلك القوة من جهة ، واستبداد الامم بعضها على بعض من جهة اخرى.

ولنرجع لاصل البحث فاقول : ولا يعهد في تاريخ الحكومات المدنية استمرار حكومة مسؤولة مدة اكثر من نصف قرن الى غاية قرن ونصف، وما شذ من ذلك سوى الحكومة الحاضرة في انكلترة ، والسبب يقظة الانكليز الذين لايسكرهم انتصار ، ولا يخملهم انكسار، فلا يغفلون لحظة عن مراقبة ملوكهم ،حتى ان الوزارة هي تنتخب للملك خدمه وحشمه فضلا عن الزوجة والصهر ، وملوك الانكليز الذين فقدوا منذ قرون كل شيء ماعدا التاج ، لو تسنى الان لاحدهم الاستبداد لغنمه حالا ولكن هيهات ان يظفر بغرة من قومه يستلم فيها زمام الجيش .

اما الحكومات البدوية التي تتألف رعيتها كلها او اكثرها من عشائر يقطنون البادية يسهل عليهم الرحيل والتفرق متى مست حكومتهم حريتهم الشخصية وسامتهم ضيماً ولم يقووا على الاستنصاف ،فهذه الحكومات قلما اندفعت الى الاستبداد واقرب مثال لذلك اهل جزيرة العرب فانهم لايكادون يعرفون

الاستبداد من قبل عهد ملوك تبّع وحمير وغسان الى الآن الافترات قليـــلة .
وأصل الحكمة في ان الحالة البدوية بعيدة بالجملة عن الوقوع تحت نير الاستبداد وهو ان نشأة البدوى نشأة استقلالية بحيث كل فرد يمكنه ان يعتمد في معيشته على نفسه فقط خلافا لقاعدة الانسان المدني الطبع ، تلك القاعدة التي اصبحت سخرية عند علمـاء الاجتماع المتأخرين ، القائلين بأن الانسان من الحيوانات التي تعيش اسرابا في كهوف ومسارح مخصوصة ، واما الآن فقد صار من الحيوان الذي متى انتهت حضانته عليه ان يعيش مستقلاً بذاته غير متعلق باقاربه وقومه كل الارتباط ، ولا مرتبط ببيته وبلده كل التعلق كما هي معيشة اكثر الانكليز والاميركان الذين لا يفتكر الفرد منهم ان تعلقه بقومه وحكومته ليس باكثر من رابطة شريك في شركة اختيارية خلافا للامم التي تتبع حكوماتها حتى فيما تدين .

الناظر فى احوال الامم يرى ان الاسراء يعيشون متلاصقون متراكمون يتحفظ بعضهم ببعض من سطوة الاستبداد كالغنم تلتف على بعضها اذا ذعرها الذئب ، اما العشائر والامم الحرة المالك افرادها الاستقلال الناجز فيعيشون متفرقون .

وقد تكلم بعض الحكماء لاسيما المتأخرون منهم في وصف الاستبـداد ودوائه بجمل بليغة بديعة تصور في الاذهان شقاء الانسان كأنها تقول له هذا عدوك فانظر ماذا تصنع ، ومن هذه الجمل قولهم :

« المستبد يتحكم في شئون الناس بـارادته لا بارادتهم ويحكمهم بهواه لا بشريعتهم ، ويعلم من نفسه انه الغاصب المتعدي فيضع كعب رجله على افواه

الملايين من الناس يسدها عن النطق بالحق والتداعي لمطالبته ».

« المستبد عدو الحق ، عدو الحرية وقاتلها ، والحق ابو البشر والحرية امهم والعوام صبية ايتام نيام لا يعلمون شيئا ، والعلماء هم اخوتهم الراشدون ، ان ايقظوهم هبوا وان دعوهم لبوا والا فيتصل نومهم بالموت ».

« المستبد يتجاوز الحد مالم ير حاجزا من حديد ، فلو رأى الظالم على جنب المظلوم سيفاً لما اقدم على الظلم كما يقال : الاستعداد للحرب يمنع الحرب ».

« المستبد انسان مستعد بالطبع للشر وبالالجاء للخير ، فعلى الرعية ان تعرف ماهو الخير وما هو الشر فتلجيء حاكمها للخير رغم طبعه ، وقد يكفي الالجاء مجرد الطلب اذا علم الحاكم ان وراء القول فعل . ومن المعلوم ان مجرد الاستعداد للفعل فعل يكفي شرّ الاستبداد » .

« المستبد يود ان تكون رعيته كالغنم درّاً وطاعة ، وكالكلاب تذللا وتملقا ، وعلى الرعية ان تكون كالخيل ان خُدمت خَدمت ، وان ضُربت شَرست ، وعليها ان تكون كالصقور لا تُلاعب ولا يُستأثر عليها بالصيد كله ، خلافا للكلاب التي لا فرق عندها أطعمت او حُرمت حتى من العظام ؛ نعم على الرعية ان تعرف مقامها هل خلقت خادمة لحاكمها ، تطيعه ان عدل اوجار ، وخلق هو ليحكمها كيف شاء بعدل او اعتساف ، ام هي جاءت به ليخدمها لا ليستخدمها ! . والرعية العاقلة تقيد وحش الاستبداد بزمام تستميت دون بقاءه في يدها لتأمن من بطشه فان شمخ هزت به الزمام وان صال ربطته » .

من اقبح انواع الاستبداد استبداد الجهل على العلم واستبداد النفس على العقل ويسمي استبداد المرء على نفسه وذلك ان الله جلت نعمه خلق الانسان حراً قائده العقل فكفر وأبى الا ان يكون عبداً قائده الجهل ، خلقه وسخر له اما وابا يقومان بأوده الى ان يبلغ اشده ، ثم جعل له الارض اما والعمل ابا ، فكفر وما رضي الا ان تكون امته امه وحاكمه اباه . خلق له ادراكا ليهتدي الى معاشه ويتقي مهلكه ، وعينين ليبصر ، ورجلين ليسعى ، ويدين ليعمل ، ولسانا ليكون ترجمانا عن ضميره ، فكفر وما احب الا ان يكون كالابله الاعمى ، المقعد ، الاشل ، الكذوب ، ينتظر كل شيء من غيره ، وقلما يطابق لسانه جنانه.. خلقه منفرداً غير متصل بغيره ليملك اختياره في حركته وسكونه فكفر وما استطاب الا الارتباط في ارض محدودة سماها الوطن ، وتشابك بالناس ما استطاع اشتباك تظالم لا اشتباك تعاون . . . خلقه ليشكره على جعله عنصرا حياً بعد ان كان ترابا ، وليلجأ اليه عند الفزع تثبيتاً للجنـــان ، وليستند عليه عند العزم دفعاً للتردد ، وليثق بمكافأته او مجازاته على الاعمال ، فكفر وابى شكره وخلط في دين الفطرة الصحيح بالباطل ليغالط نفسه وغيره . خلقه يطلب منفعته جاعلا رائده الوجدان ، فكفر واستحل المنفعة باي وجه كان فلا يتعفف عن محظور صغير الا توصلا لمحرم كبير . خلقه وبذل له موادا لحياة ، من نور ونسيم ونبات وحيوان ومعادن وعناصر مكنوزة في خزائن الطبيعة بمقادير ناطقة بلسان الحال بان واهب الحياة حكيم خبير جعل مواد الحياة الاكثر لزوما في ذاته ، اكثر وجودا وابتذالا . فكفر الانسان نعمة

الله وابى ان يعتمد كفالة رزقه فوكله ربه الى نفسه وابتلاه بظلم نفسه وظلم جنسه وهكذا كان الانسان ظلوما كفوراً .

الاستبداد يد الله القوية الخفية يصفع بها رقاب الآبقين من جنة عبوديته الى جهنم عبودية المستبدين الذين يشاركون الله في عظمته ويعاندونه جهاراً وقد ورد في الخبر : (الظالم سيف الله ينتقم به ثم ينتقم منه) ، كما جاء في اثر آخر : (من اعان ظالما على ظلمه سلطه الله عليه) ولا شك في ان اعانة الظالم تبتدأ من مجرد الاقامة في ارضه .

الاستبداد هو نار غضب الله في الدنيا ، والجحيم نار غضبه في الآخرة وقد خلق الله النار اقوى المطهرات فيطهر بها في الدنيا دنس من خلقهم احرارا وبسط لهم الارض واسعة وبذل فيها رزقهم، فكفروا بنعمته ورضخوا للاستعباد والتظالم.

الاستبداد اعظم بلاء يتجعل الله به الانتقام من عباده الظالمين ولا يرفعه عنهم حتى يتوبوا توبة الانفة . نعم ، الاستبداد اعظم بلاء لانه وباء دائم بالفتن وجدب مستمر بتعطيل الاعمال ، وحريق متواصل بالسلب والغصب، وسيل جارف للعمران ، وخوف يقطع القلوب ، وظلام يعمي الابصار ، والم لايفتر ، وصائل لايرحم ، وقصة سوء لاتنتهي . واذا سأل سائل لماذا يبتلي الله عباده بالمستبدين ؟ فابلغ جواب مسكت هو : ان الله عادل مطلق لا يظلم احداً ، فلا يولي المستبد الا على المستبدين . ولو نظر السائل نظرة الحكيم المدقق لوجد كل فرد من اسراء الاستبداد مستبداً في نفسه لو قدر لجعل زوجته وعائلته

وعشيرته وقومه والبشر كلهم حتى وربه الذي خلقه تابعين لرأيه وامره .

فالمستبدون يتولاهم مستبد والاحرار يتولاهم الاحرار ، وهـذا صريح معنى : (كما تكونوا يولى عليكم) .

ماأليق بالاسير في ارض ان يتحول عنها الى حيث يملك حريته فان الكلب الطليق خير حياة من الاسد المربوط .

الاستبداد والدين

تضافرت آراء اكثر العلماء الناظرين في التاريخ الطبيعي للاديان على ان الاستبداد السياسي متولد من الاستبداد الديني ،والبعض يقول ان لم يكن هناك توليد فهما اخوان ابوهما التغلب وامهما الرياسة ، او هما صنوان قويان بينهما رابطة الحاجة على التعاون لتذليل الانسان ، والمشاكلة بينهما انهما حاكمان احدهما في مملكة الاجسام والآخر في عالم القلوب . والفريقان مصيبان في حكمهما بالنظر الى مغزى اساطير الاولين والقسم التاريخي من التوراة والرسائل المضافة الى الانجيل ؛ ومخطئون في حق الاقسام التعليمية الاخلاقية فيها ، كما هم مخطئون اذا نظروا الى ان القرآن جاء مؤيداً للاستبداد السياسي،وليس من العذر شيء ان يقولوا نحن لاندرك دقائق القرآن نظرا لخفائها علينا في طي بلاغته ووراء العلم باسباب نزول آياته ، وانما نبني نتيجتنا على مقدمات مانشاهد عليه المسلمين منذ قرون الى الآن من استعانة مستبديهم بالدين .

يقول هؤلاء المحررون ان التعاليم الدينية ومنها الكتب السماوية تدعو البشر الى خشية قوة عظيمة هائلة لاتدرك العقول كنهها ، قوة تتهدد الانسان بكل مصيبة في الحياة فقط كما عند البوذية واليهودية ،او في الحياة وبعد الممات كما عند النصارى والاسلام ، تهديداً ترتعد منه الفرائص فتخور القوى

وتذهل منه العقول فتستسلم للخبل والخمول ، ثم تفتح هذه التعاليم ابوابا للنجاة من تلك المخاوف نجاة وراءها نعيم مقيم ، ولكن على تلك الابواب حجاب من البراهمة والكهنة او القسوس وامثالهم الذين لا يأذنون للناس بالدخول مالم يعطوهم مع التذلل والصغار ويرزقوهم باسم نذر او ثمن غفران ، حتى ان اولئك الحجاب في بعض الاديان يحجزون فيما يزعمون لقاء الارواح بربها مالم يأخذوا عنها مكوس المرور الى القبور وفدية الخلاص من مطهر الاعراف . وهؤلاء المهيمنون على الاديان كم يرهبون الناس من غضب الله وينذرونهم بحلول مصائبه وعذابه عليهم ثم يرشدونهم الى ان لا خلاص ولا مناص لهم الا بالالتجاء الى سكان القبور الذين لهم دالة بل سطوة على الله فيحمونهم من غضبه .

ويقولون ان السياسيين يبنون كذلك استبدادهم على اساس من هذا القبيل ، فهم يسترهبون الناس بالتعالي الشخصي والتشامخ الحسي ، ويذللونهم بالقهر والقوة وسلب الاموال حتى يجعلوهم خاضعين لهم عاملين لأجلهم يتمتعون بهم كانهم نوع من الانعام التي يشربون البانها ويأكلون لحومها ويركبون ظهورها وبها يتفاخرون .

ويرون ان هذا التشاكل في بناء ونتائج الاستبدادين الديني والسياسي جعلها في مثل فرنسا خارج باريس مشتركين في العمل كانهما يدان متعاونتان ، وجعلهما في مثل روسيا مشتبكين في الوظيفة كانهما اللوح والقلم يسجلان الشقاء على الامم .

ويقررون ان هذا التشاكل بين القوتين ينجرّ بعوام البشر وهم السواد الاعظم الى نقطة ان يلتبس عليهم الفرق بين الآله المعبود بحق وبين المستبد المطاع بالقهر ، فيختلطان في مضايق اذهانهم من حيث التشابه في استحقاق مزيد التعظيم ، والرفعة عن السؤال وعدم المؤاخذة على الافعال ؛ بناء عليه لا يرون لانفسهم حقا في مراقبة المستبد لانتفاء النسبة بين عظمته ودناءتهم؛ وبعبارة اخرى يجد العوام معبودهم وجبارهم مشتركين في كثير من الحالات والاسماء والصفات ، وهم هم ليس من شأنهم ان يفرقوا مثلاً بين الفعّال المطلق، والحاكم بأمره ، وبين (لايسئل عما يفعل) وغير مسئول ، وبين (المنعم) وولي النعم ، وبين (جل شأنه) وجليل الشأن . بناء عليه يعظمون الجبارة تعظيمهم لله ، ويزيدون تعظيمهم على التعظيم لله لانه حليم كريم ولان عذابه آجل غائب ، واما انتقام الجبار فعاجل حاضر . والعوام كما يقال عقولهم في عيونهم ، يكاد لايتجاوز فعلهم المحسوس المشاهد حتى يصح ان يقال فيهم : لولا رجاءهم بالله وخوفهم منه فيما يتعلق بحياتهم الدنيا لما صلوا ولا صاموا ، ولولا املهم العاجل لما رجحوا قراءة الدلائل والاوراد على قراءة القرآن ، ولا رجحوا اليمين بالاولياء المقربين كما يعتقدون على اليمين بالله .

وهذه الحال هي التي سهلت في الامم الغابرة المنحطة دعوى بعض المستبدين الالوهية على مراتب مختلفة حسب استعداد اذهان الرعية ، حتى يقال انه انه مامن مستبد سياسي الى الآن الا ويتخذ له صفة قدسية يشارك بها الله او تعطيه مقام ذي علاقة مع الله . ولا اقل من ان يتخذ بطانة من خدمة الدين

يعينونه على ظلم الناس باسم الله ، واقل مايعينون به الاستبداد تفريق الامم الى مذاهب وشيع متعادية تقاوم بعضها بعضاً فتتهاتر قوة الامة ويذهب ريحها فيخلو الجو للاستبداد ليبيض ويفرخ، وهذه سياسة الانكليز في المستعمرات لايؤيدها شيء مثل انقسام الاهالي على انفسهم وافناءهم بأسهم بينهم بسبب اختلافهم في الاديان والمذاهب .

ويعللون ان قيام المستبدين من امثال (ابناء داود) و (قسطنطين) في نشر الدين بين رعاياهم وانتصار مثل (فيليب الثاني) الاسباني و (هنري الثامن) الانكليزي للدين حتى بتشكيل مجالس (انكيزيسيون)[1] وقيام الحاكم الفاطمي والسلاطين الاعاجم في الاسلام بالانتصار لغلاة الصوفية وبنائهم لهم التكايا لم يكن الا بقصد الاستعانة بممسوخ الدين وببعض اهله المغفلين على ظلم المساكين، واعظم مايلائم مصلحة المستبد ويؤيدها ان الناس يتلقون قواعده واحكامه باذعان بدون بحث او جدال فيودون تأليف الامة على تلقي اوامرهم بمثل ذلك، ولهذا القصد عينه كثيرا ما يحاولون بناء اوامرهم او تفريعها على شيء من قواعد الدين .

ويحكمون بان بين الاستبداد السياسي والديني مقارنة لاتنفك متى وجد احدهما في امة جر الآخر اليه او متى زال زال رفيقه ، وان صلح اي ضعف

---

(١) محاكم لمعاقبة المتهمين بالزندقة او مخالفة بعض احكام الدين وفيها انواع العذاب.

احدهما صلح اي ضعف الثاني . ويقولون ان شواهد ذلك كثيرة جداً لايخلو منها زمان ولا مكان، ويبرهنون على ان الدين اقوى تأثيراً من السياسة اصلاحا وافساداً، ويمثلون بالسكسون اي الانكليز والهولنديين والاميركان والالمان الذين قبلوا البروتستنتية فاثر التحرير الديني في الاصلاح السياسي والاخلاق اكثر من تأثير الحرية المطلقة السياسية في جمهور اللاتين اي الفرنسيين والطليان والاسبانيول والبرتغال . وقد اجمع الكتاب السياسيون المدققون بالاستناد على التاريخ والاستقراء من ان مامن امة اوعائلة او شخص تنطع في الدين اي تشدد فيه الا اختل نظام دنياه وخسر اولاه وعقباه .

والحاصل ان كل المدققين السياسيين يرون ان السياسة والدين يمشيان متكاتفين ، ويعتبرون ان اصلاح الدين هو اسهل واقوى واقرب طريق للاصلاح السياسي .

وربما كان اول من سلك هذا المسلك اي استخدام الدين في الاصلاح السياسي هم حكماء اليونان ، حيث تحيلوا على ملوكهم المستبدين في حملهم على قبول الاشتراك في السياسة باحيائهم عقيدة الاشتراك في الالوهية ، اخذوها عن الآشوريين ومزجوها باساطير المصريين بصورة تخصيص العدالة بآله والحرب بآله والامطار بآله الى غير ذلك من التوزيع، وجعلوا لآله الآلهة حق النظارة عليهم ،حق الترجيح عند وقوع الاختلاف بينهم . ثم بعد تمكن هذه العقيدة في الاذهان بما البست من جلالة المظاهر وسحر البيان سهل على اولئك الحكماء دفعهم الناس الى مطالبة جبابرتهم بالنزول من مقام الانفراد،

وبأن تكون ادارة الارض كادارة السماء ، فانصاع ملوكهم الى ذلك مكرهين وهذه هي الوسيلة العظمى التي مكنت اليونان اخيرا من اقامة جمهوريات اثينا واسبارطة . وكذلك فعل الرومان . وهذا الاصل لم يزل المثال القديم لاصول توزيع الادارة في الحكومات الملكية والجمهوريات على انواعها الى هذا العهد .

اما هذه الوسيلة اي التشريك ، فضلا عن كونها باطلة في ذاتها ، نتج عنها اخيراً رد فعل اضر كثيراً ، وذلك انها فتحت للمشعوذين من سائر طبقات الناس بابا واسعا لدعوى شيء من خصائص الالوهية كالصفات القدسية والتصرفات الروحية ، وكان قبل ذلك لا يتهجم على مثلها غير افراد من الجبابرة كنمرود ابراهيم وفرعون موسى ثم صار يدعيها البرهمي والبادري والصوفي . وللائمة هذه المفسدة لطباع البشر من وجوه كثيرة ليس بحثنا هذا محلها انتشرت وعمت وجندت جيشاً عرمرما يخدم المستبدين .

وقد جاءت التوراة بالنشاط فخلصتهم من خمول الاتكال بعد ان بلغ فيهم ان يكلفوا الله وبيه يقاتلان عنهم ، وجاءتهم بالنظام بعد فوضى الاحلام ، ورفعت عقيدة التشريك مستبدلة مثلا اسماء الآلهة المتعددين بالملائكة ولكن لم يرض بعض ملوك آل كوهين بالتوحيد فافسدوه . ثم جاء الانجيل بسلسبيل الدعة والحلم فصادف افئدة محروقة بنار القساوة والاستبداد ، وكان ايضا مؤيداً لناموس التوحيد ، ولكن لم يقو دعاته الاولون على تفهيم تلك الاقوام المنحطة ، الذين بادروا لقبول النصرانية قبل الامم المترقية ،

ان الابوة والبنوة صفتان مجازيتان يعبر بهما عن معنى لايقبله العقل الا تسليما كمسألة القدر التي ورثت الاسلامية التفلسف فيها عن اديان الهنود واوهام اليونان ، ولهذا تلقت تلك الامم الابوة والبنوة بمعنى توالد حقيقي لانه اقرب الى مداركهم البسيطة التي يصعب عليها تناول مافوق المحسوسات ، ولانهم كانوا قد الفوا الاعتقاد في بعض جبابرتهم الاولين انهم ابناء الله ، فكبر عليهم ان يعتقدوا في عيسى عليه السلام صفة هي دون مقام اولئك الملوك . ثم لما انتشرت النصرانية ودخلها قوم مختلفون تلبست ثوباً غير ثوبها كما هو شأن سائر الاديان التي سلفتها فتوسمت برسائل بولس ونحوها فامتزجت بأزياء وشعائر وثنية للرومان والمصريين مضافة على شعائر الاسرائيليين واشياء من الاساطير وغيرها ، واشياء من مظاهر الملوك ونحوها ، وهكذا صارت النصرانية تعظم رجال الكهنوت الى درجة اعتقاد النيابة عن الله والعصمة عن الخطأ ، وقوة التشريع ونحو ذلك مما رفضه اخيراً البروتستان اي الراجعون في الاحكام لاصل الانجيل .

ثم جاء الاسلام مهذباً لليهودية والنصرانية مؤسساً على الحكمة والعزم هادماً للتشريك بالكلية ، ومحكماً لقواعد الحرية السياسية المتوسطة بين الديموقراطية والاريستوقراطية ؛ فاسس التوحيد ونزع كل سلطة دينية او تغلبيّة تتحكم في النفوس او في الاجسام ، ووضع شريعة حكمة اجمالية صالحة لكل زمان وقوم ومكان ، واوجد مدنية فطرية سامية ، واظهر الوجود حكومة كحكومة الخلفاء الراشدين التي لم يسمح الزمان بمثال لها بين البشر حتى ولم

يخلفهم فيها بين المسلمين انفسهم خلف الا بعض شواذ كعمر بن عبد العزيز والمهتدي العباسي ونور الدين الشهيد . فان هؤلاء الخلفاء الراشدين فهموا معنى ومغزى القرآن النازل بلغتهم وعملوا به واتخذوه اماما، فانشأوا حكومة قضت بالتساوي حتى بينهم انفسهم وبين فقراء الامة في نعيم الحياة وشظفهـــا ، واحدثوا في المسلمين عواطف اخوة وروابط هيئة اجتماعية اشتراكية لاتكاد توجد بين اشقاء يعيشون باعالة اب واحد وفي حضانة ام واحدة ، لكل منهم وظيفة شخصية، ووظيفة عائلية ووظيفة قومية . على ان هذا الطراز السامي من الرياسة هو الطراز النبوي المحمدي لم يخلفه فيه حقاً غير ابي بكر وعمر ثم اخذ بالتناقص ، وصارت الامة تطلبه وتبكيه من عهد عثمان الى الآن، وسيدوم بكاؤها الى يوم الدين اذا لم تنتبه لاستعواضه بطراز سياسي شورى ؛ ذلك الطراز الذي اهتدت اليه بعض امم الغرب ؛ تلك الامم التي لربما يصح ان نقول قد استفادت من الاسلام اكثر مما استفاده المسلمون .

وهذا القرآن الكريم مشحون بتعاليم اماتة الاستبداد واحيـاء العدل والتساوي حتى في القصص منه ؛ ومن جملتها قول بلقيس ملكة سبأ من عرب تبّع تخاطب اشراف قومها : « يأيها الملاء افتوني في امري ما كنت قاطعة امراً حتى تشهدون ، قالوا نحن أولو قوة وألو بأس شديد ؛ والامر اليك فانظري ماذا تأمرين ؛ قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة وكذلك يفعلون » .

فهذه القصة تعلم كيف ينبغي ان يستشير الملوك الملأ اي اشراف الرعية،

وان لايقطعوا امراً الا برأيهم ، وتشير الى لزوم ان تحفظ القوة والبأس في يد الرعية ، وان يخصص الملوك بالتنفيذ فقط وان يكرموا بنسبة الامر اليهم توقيراً ، وتقبح شأن الملوك المستبدين .

ومن هذا الباب ايضاً ماورد في قصة موسى عليه السلام مع فرعون في قوله تعالى : « وقال الملأ من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم يريد ان يخرجكم من ارضكم فاذا تأمرون » اي قال الاشراف بعضهم لبعض : ماذا رأيكم ؟ (قالوا) خطابا لفرعون وهو قرارهم : « ارجه واخاه وارسل في المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم »[1] ثم وصف مذكراتهم بقوله تعالى : « فتنازعوا امرهم » اى رأيهم « بينهم واسروا النجوى » اي افضت مذكراتهم العلنية الى النزاع فاجروا مذاكرة سرية طبق مايجري الى الآن في مجالس الشورى العمومية .

بناء على ماتقدم لامجال لرمي الاسلامية بتأييد الاستبداد مع تأسيسها على مئات من امثال هذه الآيات البينات التي منها قوله تعالى « وشاورهم في الامر » اي في الشأن ، ومن قوله تعالى « يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم » اى اصحاب الرأي والشأن منكم ، وهم العلماء والرؤساء على ماتفق عليه اكثر المفسرين ، وهم الاشراف في اصطلاح السياسيين . ومما يؤيد هذا المعنى ايضاً قوله تعالى « وما امر فرعون » اي ما

---

(١) الساحر هو الداهية المقتدر على التمويه والخداع.

شأنه ، وحديث « اميري من الملائكة جبريل » اي مشاوري .

وليس بالامر الغريب ضياع معنى « اولي الامر » على كثير من الافهام بتضليل علماء الاستبداد الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، وقد اغفلوا معنى قيد (منكم) اي المؤمنين منعا لتطرق افكار المسلمين الى التفكر بان الظالمين لايحكمونهم بما انزل الله ، ثم التدرج الى معنى آية « ان الله يأمر بالعدل » اي التساوي ، « واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل » اي التساوي ؛ ثم ينتقل الى معنى آية « ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون » . ثم يستنتج عدم وجوب طاعة الظالمين وان قال بوجوبها بعض الفقهاء المالئين دفماً للفتنة التي تحصد امثالهم حصداً . والاغرب من هذا جسارتهم على تضليل الافهام في معنى (امر) في آية : « اذا اردنا اهلاك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها العذاب » ؛ فانهم لم يبالوا ان ينسبوا الى الله الامر بالفسق... تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ... والحقيقة في معنى (امرنا) هنا انه بمعنى أمرنا ـ بكسر الميم او تشديدها ـ اي جعلنا امراءها مترفيها ففسقوا فيها (اي ظلموا اهلها) فحق عليهم العذاب اي (نزل بهم العذاب) .

والاغرب من هذا وذاك انهم جعلوا للفظة العدل معنى عرفياً وهو الحكم بمقتضى ماقاله الفقهاء حتى اصبحت لفظة العدل لاتدل على غير هذا المعنى ، مع ان العدل لغة التسوية ؛ فالعدل بين الناس هو التسوية بينهم وهذا هو المراد في آية : « ان الله يأمر بالعدل » ، وكذلك القصاص في آية : « ان لكم في القصاص حياة » المتواردة مطلقاً ، لا المعاقبة بالمثل فقط على مايتبادر الى اذهان الاسراء

الذين لايعرفون للتساوي موقعاً في الدين غير في الوقوف بين يدي القضاة .

وقد عدد الفقهاء من لاتقبل شهادتهم لسقوط عدالتهم فذكروا حتى من يأكل ماشياً في الاسواق ؛ ولكن شيطان الاستبـــداد انساهم ان يفسّقوا الامراء الظالمين فيردوا شهادتهم . ولعل الفقهاء يعذرون بسكوتهم هنا مع تشنيعهم على الظالمين في مواقع اخرى ؛ ولكن ما عذرهم في تحويل معنى الآية: « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر» الى ان هذا الفرض هو فرض كفاية لافرض عين والمراد منه سيطرة افراد المسلمين بعضهم على بعض ؛ لاقامة فئة تسيطر على حكامهم كما اهتدت الى ذلك الامم الموفقة للخير ؛ فخصصت منها جماعات باسم مجالس نواب وظيفتهـــا السيطرة والاحتساب على الادارة العمومية : السياسية والمالية والتشريعية ، فتخلصوا بذلك من شآمة الاستبداد . اليست هذه السيطرة وهذا الاحتساب بأهم من السيطـرة على الافراد ؟ ومن يدري من اين جاء فقهاء الاستبـداد بتقديس الحكام عن المسئولية حتى اوجبوا لهم الحمد اذا عدلوا ، واوجبوا الصبر عليهم اذا ظلموا ، وعدوا كل معارضة لهم بغياً يبيح دماء المعارضين ؟!

اللهم ان المستبدين وشركاءهم قد جعلوا دينك غير الدين الذي انزلت فلا حول ولا قوة الا بك !

كذلك ماعذر اولئك الصوفية الذين جعلتهم الانعامات على زواياهم ان يقولوا : لايكون الامير الاعظم الا ولياً من اولياء الله ، ولايأتي امراً الا بالهام من الله ، وانه يتصرف في الامور ظاهراً ، ويتصرف فيها قطب الغوث

باطناً ! الا سبحان الله ما احلمه !

نعم ، لولا حلم الله لخسف الارض بالعرب ؛ حيث ارسل لهم رسولاً من انفسهم اسس لهم افضل حكومة اسست في الناس ، جعل قاعدتها قوله : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » اي كل منكم سلطان عام ومسئول عن الامة . وهذه الجملة التي هي اسمى وابلغ ماقاله مشرع سياسي من الاولين والآخرين ، فجاء من المنافقين من حرف المعنى عن ظاهره وعموميته الى ان المسلم راع على عائلته ومسئول عنها فقط . كما حرفوا معنى الآية : « المؤمنون بعضهم اولياء بعض » الى ولاية الشهادة دون الولاية العامة . وهكذا غيروا مفهوم اللغة ، وبدلوا الدين ، وطمسوا على العقول حتى جعلوا الناس ينسون لذة الاستقلال ، وعزة الحرية ؛ بل جعلوهم لايعقلون كيف تحكم امة نفسها بنفسها بدون سلطان قاهر .

وكأن المسلمين لم يسمعوا بقول النبي عليه السلام : « الناس سواسية كأسنان المشط ، لافضل لعربي على عجمي الا بالتقوى » . وهذا الحديث من اصح الاحاديث لمطابقته للحكمة ومجيئه مفسراً الآية « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » فان الله جل شأنه ساوى بين عباده مؤمنين وكافرين في المكرمة بقوله : « وكرمنا بني آدم » ثم جعل الافضلية في الكرامة للمتقين فقط . ومعنى التقوى لغة ليس كثرة العبادة كما صار ذلك حقيقة عرفية غرسها علماء الاستبداد القائلين في تفسير (عند الله) اي في الآخرة دون الدنيا ؛ بل التقوى لغة هي الاتقاء اي الابتعاد عن رذائل الاعمال احترازا من عقوبة

الله . فقوله ان اكرمكم عند الله اتقاكم كقوله ان افضل الناس اكثرهم ابتعادا عن الآثام وسوء عواقبها .

وقد ظهر مما تقدم ان الاسلامية مؤسسة على اصول الحرية برفعها كل سيطرة وتحكم بأمرها بالعدل والمساواة والقسط والاخاء، بحضها على الاحسان والتحابب . وقد جعلت اصول حكومتها : الشورى الاريستوقراطية اى شورى اهل الحل والعقد في الامة بعقولهم لا بسيوفهم . وجعل اصول ادارة الامة : التشريع الديمقراطي اي الاشتراكي حسبما يأتي فيما بعد . وقد مضى عهد النبي عليه السلام وعهد الخلفاء الراشدين على هذه الاصول بأتم وأكمل صورها . ومن المعلوم انه لا يوجد في الاسلامية نفوذ ديني مطلقا في غير مسائل اقامة شعائر الدين ومنها القواعد العامة التشريعية التي لا تبلغ مائة قاعدة وحكم كلها من اجلّ واحسن ما اهتدى اليه المشرعون من قبل ومن بعد . ولكن وأسفاه على هذا الدين الحر ، الحكيم ، السهل ، السمح ، الظاهرة فيه آثار الرقي على غيره من سوابقه . الدين الذي رفع الاصر والاغلال واباد الميزة والاستبداد . الدين الذى ظلمه الجاهلون فهجروا حكمة القرآن ودفنوها في قبور الهوان . الدين الذي فقد الانصار الابرار والحكماء الاخيار فسطا عليه المستبدون والمترشحون للاستبداد ، واتخذوه وسيلة لتفريق الكلمة وتقسيم الامة شيعاً ، وجعلوه آلة لأهوائهم السياسية فضيعوا مزاياه وحيروا اهله بالتفريع والتوسيع ، والتشديد والتشويش ، وادخال ما ليس منه فيه كما فعل قبلهم اصحاب الاديان السائرة ، حتى جعلوه ديناً حرجاً يتوهم الناس فيه ان

كل مادونه المتفننون بين دفتي كتاب ينسب لاسم اسلامي هو من الدين ، وبمقتضاها ان لايقوى على القيام بواجباته وآدابه ومزيداته ، الا من لاعلاقة له بالحياة الدنيا ؛ بل اصبحت بمقتضاها حياة الانسان الطويل العمر ، العاطل عن كل عمل ، لانفي بتعلم ماهي الاسلامية عجزا عن تمييز الصحيح من الباطل من تلك الآراء المتشعبة التي اطال اهلها فيها الجدال والمناظرة ؛ ومافترقوا الا وكل منهم في موقفه الاول يظهر انه الزم خصمه الحجة واسكته البرهان والحقيقة ان كلا منهم قد سكت تعباً وكلالا من المشاغبة .

وبهذا التشديد الذي ادخله على الدين منافقو المجوس ؛ انفتح على الامة باب التلوم على النفس ، واعتقاد التقصير المطلق ، وان لانجاة ولا مخرج ولا امكان لمحاسبة النفس فضلا عن محاسبة الحكام المنوط بهم قيام العدل والنظام. وهذا الاهمال للمراقبة وهو اهمال الامر بالمعروف والنهي عن المنكر قد اوسع لامراء الاسلام مجال الاستبداد وتجاوز الحدود . وبهذا وذاك ظهر حكم حديث : «لتأمرنّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر او ليستعملن الله عليكم شراركم فليسومونكم سوء العذاب» .واذا تتبعنا سيرة ابي بكر وعمر رضي الله عنهما مع الامة ، نجدانهما مع كونهما مفطورين خير فطرة ، ونائلين التربية النبوية لم تترك الامة معهما المراقبة والمحاسبة ولم تطعهما طاعة عمياء .

وقد جمع بعضهم جملة مما اقتبسه واخذه المسلمون عن غيرهم وليس هو من دينهم بالنظر الى القرآن والمتواترات من الحديث واجماع السلف الاول فقال:

(اقتبسوا) من النصرانيـة مقـام البابوية باسم الغوثية و (ضاهوا) في الاوصاف والاعداد اوصاف واعداد البطارقة ، والكردينالية والشهداء والاساقفة، و(حاكوا) مظاهر القديسين و عجائبهم ، والدعاة المبشرين وصبرهم، والرهبنات ورؤسائها ،وحالة الاديرة وبادريتها. والرهبنات ورسومها والحمية وتوقيتها ، (وقلدوا) رجال الكهنوت والبراهمة في مراتبهم وتميزهم في البستهم وشعورهم، ولبس المسابح في الرقاب ، (وقلدوا) الوثنيين الرومانيين في الرقص على انغام الناي والتغالي في تطييب الموتى والاحتفال الزائد في الجنائز وتسريح الذبائح معها وتكليلها وتكليل القبور بالزهور . (وشاكلوا) مراسم الكنائس وزينتها ، والبيع واحتفالاتها،والترنحات ووزنها ، والترنمات واصولها، واقامة الكنائس على القبور ، وشد الرحال لزيارتها ، والاسراج عليهـا، والخضوع لديها ، وتعليق الآمال بسكانها . و (اخذوا) التبرك بالآثار : كالقدح والحربة والدستار ، من احترام الذخيرة وقدسية العكاز ، وكذلك امرار اليد على الصدر عند ذكر الصالحين ، من امرارهـا على الصدر لاشارة التصليب . و (انتزعوا) الحقيقة من السر ، ووحدة الوجود من الحلول ، والخلافة من الرسم ، والسقيا من تناول القربان ، والمولد من الميلاد ،وحفلته من الاعياد ، ورفع الاعلام من حمل الصلبان ، وتعليق الواح الاسماء المصدرة بالنداء على الجدران من تعليق الصور والتماثيل، والاستفاضة والمراقبة من التوجـه بالقلوب انحناء امام الاصنام . و (منعوا) الاستهداء من نصوص الكتـاب والسنة كحظر الكاثوليك التفهم من الانجيل وامتناع احبار اليهود عن

اقامة الدليل من التوراة في الاحكام . و (جاءوا) من المجوسية باستطلاع الغيب من الفلك وبخشية اوضاع الكواكب وباتخاذ اشكالها شعاراً للملك ، وباحترام النار ومواقدها . و (قلدوا) البوذيين حرفا بحرف فى الطريقة والرياضة وتعذيب الجسم بالنار والسلاح ، واللعب بالحيات والعقارب وشرب السموم ،ودق الطبول والصنوج وجعـــل رواتب من الادعية والاناشيد والاحزاب، واعتقاد تأثير العزائم ونداء الاسماء ، وحمل التمائم الى غير ذلك مما هو مشاهد في بوذيي الهند ومجوس فارس والسند الى يومنـا هذا . وقد قيل انه نقله الى الاسلامية امثال جون وست وسلطان علي منلا والبغدادي وحشية فلان الشيخ وفلان الفارسي ، على ان اسناد ذلك الى اشخاص معينين يحتاج الى تثبيت . (ولفقوا) من الاساطير والاسرائيليات انواعا من القربات، وعلوما سموها لدنيات .

وكذلك يقال عن مبتدعي النصارى من ان اكثر ماعتبره المتأخرون منهم من الشعائر الدينية حتى مشكلة التثليث لااصل له فيما ورد عن نفس المسيح عليه السلام ؛ انما هو مزيدات وترتيبات قليلها مبتدع ، وكثيرهـا متبع . وقد اكتشف العلماء الآثاريون من الصفائح الحفرية الهندية والآشورية ومن الصحف التي وجدت في نواويس المصريين الاقدمين على مآخذا كثرها. وكذلك وجدوا لمزيدات التلمود وبدع الاحبار اصولا في الاسـاطير والآثار والالواح الآشورية، وترقوا في التطبيق والتدقيق الى ان وجدوا معظم الخرافات المضافة الى اصول عامة الاديان في الشرق الادنى مقتبسة من

الوضعيات المنسوبة لنحل الشرق الاقصى ، وقد كشفت الآثار ان الاستبداد اخفى تاريخ الاديان وجعل اخبار منشأها في ظلام مطبق ، حتى ان اعداء الاديان المتأخرين امكنهم ان ينكروا اساسا وجود موسى وعيسى عليهما السلام ، كما شوش الاستبداد في المسلمين تاريخ آل البيت عليهم الرضوان ؛ الامر الذي تولد عنه ظهور الفرق التي تشيعت لهم كالامامية والاسماعيلية والزيدية والحاكمية وغيرهم .

والخلاصة ان البدع التي شوشت الايمان وشوهت الاديان تكاد كلها تتسلسل بعضها من بعض وتتولد جميعها من غرض واحد هو المراد الا وهو الاستعباد .

والناظر المدقق في تاريخ الاسلام يجد للمستبدين من الخلفاء والملوك الاولين وبعض العلماء الاعاجم وبعض مقلديهم من العرب المتأخرين اقوالا افتروها على الله ورسوله تضليلا للامة عن سبيل الحكمة يريدون بها اطفاء نور العلم واطفاء نور الله ، ولكن ابى الله الا ان يتم نوره ؛ فحفظ للمسلمين كتابه الكريم الذي هو شمس العلوم وكنز الحكم من ان تمسه يد التحريف وهي احدى معجزاته لانه قال فيه « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » فما مسه المنافقون الا بالتأويل وهذا ايضاً من معجزاته ؛ لانه اخبر عن ذلك في قوله: « فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ».

واني امثل للطالعين مافعله الاستبداد في الاسلام بما حجر على العلماء الحكماء من ان يفسروا قسمي الآلاء والاخلاق من القرآن تفسيراً مدققاً

لانهم كانوا يخافون مخالفة رأي بعض الغفل السالفين او بعض المنافقين المقربين المعاصرين ، فيكفّرون فيقتلون . وهذه مسألة اعجاز القرآن وهي اهم مسألة في الدين لم يقدروا ان يوفوها حقها من البحث واقتصروا على ماقاله فيها بعض السلف قولا مجملا من انها قصور الطاقة عن الاتيان بمثله في فصاحته وبلاغته وانه اخبر عن ان الروم من بعد غلبهم سيغلبون . مع انه لو فتح للعلماء ميدان التدقيق وحرية الرأي والتأليف كما اطلق عنان التخريف لاهل التأويل والحكم لأظهروا في الوف من آيات القرآن الوف آيات من الاعجاز، لرأوا فيه كل يوم آية تتجدد مع الزمان والحدثان تبرهن اعجازه بصدق قوله : « ولا رطب ولايابس الا في كتاب مبين »، ولجعلوا الامة تؤمن باعجازه عن برهان وعيان لامجرد تسليم واذعان.

ومثال ذلك ان العلم كشف في هذه القرون الاخيرة حقائق وطبائع كثيرة تعزى لكاشفيها ومخترعيها من علماء اوروبا وامريكا ؛ والمدقق في القرآن يجد اكثرها ورد به التصريح او التلميح في القرآن منذ ثلاثة عشر قرنا ؛ ومابقيت مستورة تحت غشاء من الخفاء الا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن شاهدة بانه كلام رب لايعلم الغيب سواه، ومن ذلك انهم قد كشفوا ان مادة الكون هي الاثير وقد وصف القرآن بدأ التكوين فقال : « ثم استوى الى السماء وهي دخان » . وكشفوا ان الكائنات في حركة دائمة دائبة والقرآن يقول : « وآية لهم الارض الميتة احييناها » الى ان يقول: « وكل في فلك يسبحون » .

وحققوا ان الارض منفتقة في النظام الشمسي والقرآن يقول · «ان السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما »

وحققوا ان القمر منشق من الارض والقرآن يقول : « افلا يرون انا نأتي الارض ننقصها من اطرافها » . ويقول : « اقتربت الساعة وانشق القمر»

وحققوا ان طبقات الارض سبع والقرآن يقول : « خلق سبع سموات طباقا ومن الارض مثلهن »

وحققوا انه لولا الجبال لاقتضى الثقل النوعي ان تميد الارض اي ترتج في دورتها والقرآن يقول :« والقى في الارض رواسي ان تميد بكم ».

وكشفوا ان سر التركيب الكيماوي بل والمعنى هو تخالف نسبة المقادير وضبطها والقرآن يقول:« كل شيء عنده بمقدار » .

وكشفوا ان للجمادات حياة قائمة بماء التبلور والقرآن يقول: «وجعلنا من الماء كل شيء حي »

وحققوا ان العالم العضوي ومنه الانسان ترقى من الجماد والقرآن يقول: « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين »

وكشفوا ناموس اللقاح العام في النبات والقرآن يقول:« خلق الازواج كلها مما تنبت الارض » ويقول:« فأخرجنا به ازواجا من نبات شتى» ويقول: « اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج » · ويقول :« ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين» .

وكشفوا طريقة امساك الظل اي التصوير الشمسي والقرآن يقول : « الم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ».

وكشفوا تسيير السفن والمركبات بالبخار والكهرباء والقرآن يقول ، بعد ذكره الدواب والجواري بالريح : « وخلقنا لهم من مثله ما يركبون » .

وكشفوا وجود المكروب وتأثيره الجدري وغيره من الامراض والقرآن يقول : « وارسل عليهم طيراً ابابيل » اي متتابعة مجتمعة « ترميهم بحجارة من سجيل » اي من طين المستنقعات اليابس . الى غير ذلك من الآيات الكثيرة المحققة لبعض مكتشفات علم الهيئة والنواميس الطبيعية . وبالقياس على ما تقدم ذكره يقتضي ان كثيراً من آياته سينكشف سرها في المستقبل في وقتها المرهون تجديداً لاعجازه باخباره عما في الغيب مادام الزمان وماكر الجديدان؛ فلا بد ان يأتي يوم يكشف العلم فيه ان الجمادات ايضاً تنمو باللقاح كما تشير الى ذلك آية « ومن كل شيء خلقنا زوجين » .

الاستبداد والعلم

ماشبه المستبد في نسبته الى رعيته بالوصي الخائن القوي يتصرف في اموال الايتام وانفسهم كما يهوى ماداموا ضعافا قاصرين ، فكما انه ليس من صالح الوصي ان يبلغ الايتام رشدهم ، كذلك ليس من غرض المستبد ان تتنور الرعية بالعلم .

لايخفى على المستبد مهما كان غبياً ان لااستعباد ولا اعتساف الا مادامت الرعية حمقاء تخبط في ظلامة جهل وتيه عماء ،فلو كان المستبد طيرا لكان خفاشا يصطاد هوام العوام في ظلام الجهل ، ولو كان وحشا لكان ابن آوى يتلقف دواجن الحواضر في غشاء الليل ، ولكنه هو الانسان يصيد عالمه جاهله .

العلم قبسة من نور الله وقد خلق الله النور كشافا مبصرا ،ولادا للحرارة والقوة وجعل العلم مثله وضاحا للخير فضاحا للشر ، يولد في النفوس حرارة وفي الرؤوس شهامة ، العلم نور والظلم ظلام ومن طبيعة النور تبديد الظلام ، والمتأمل في حالة كل رئيس ومرؤوس يرى كل سلطة الرئاسة تقوى وتضعف في نسبة نقصان علم المرؤوس وزيادته .

المستبد لايخشى علوم اللغة ، تلك العلوم التي بعضها يقوّم اللسان واكثرها

هزل وهذيان يضيع به الزمان ، نعم لايخاف علم اللغة اذا لم يكن وراءاللسان حكمة حماس تعقد الالوية ، او سحر بيان يحل عقد الجيوش لانه يعرف ان الزمان ضنين بأن تلد الامهات كثيراً من امثال الكميت وحسان او مونتيسكيو وشيللار .

وكذلك لايخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد المختصة مابين الانسان وربه لاعتقاده انها لاترفع غباوة ولا تزيل غشاوة ، وانما يتلهى بها المتهوسون للعلم حتى اذا ضاع فيهاعمرهم ،وامتلأتهاادمغتهم،واخذمنهم الغرور مااخذ فصاروا لايرون علما غير علمهم ، فحينئذ يأمن المستبدمنهم كمايؤمن شر السكران اذا خمر . على انه اذا نبغ منهم البعض ونالوا حرمة بين العوام لايعدم المستبد وسيلة لاستخدامهم في تأييد امره ومجاراة هواه في مقابلة انه يضحك عليهم بشيء من التعظيم ويسد افواههم بلقيمات من فتات مائدة الاستبداد؛ ولذلك لايخاف من العلوم الصناعية محضاً لان اهلها يكونوا مسالمين صغار النفوس ، صغار الهمم ؛ يشتريهم المستبد بقليل من المال والاعزاز .ولايخاف من الماديين لان اكثرهم مبتلون بايثار النفس ، ولا من الرياضيين لان غالبهم قصار النظر .

ترتعد فرائص المستبد من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية ، والفلسفة العقلية ، وحقوق الامم وطبائع الاجتماع ،والسياسة المدنية ، والتاريخ المفصل ، والخطابة الادبية ، ونحو ذلك من العلوم التي تكبر النفوس وتوسع العقول وتعرف الانسان ماهي حقوقه وكم هم مغبون فيها ، وكيف

الطلب ، وكيف النوال ، وكيف الحفظ . واخوف مايخاف المستبد من اصحاب هذه العلوم المندفعين منهم لتعليم الناس بالخطابة او الكتابة وهم المعبر عنهم في القرآن بالصالحين والمصلحين في نحو قوله تعالى : « ان الارض يرثها عبادي الصالحون » وفي قوله : « وما كنا لنهلك القرى واهلها مصلحون »، وان كان علماء الاستبداد يفسرون مادة الصلاح والاصلاح بكثرة التعبد كما حولوا معنى مادة الفساد والافساد : من تخريب نظام الله الى التشويش على المستبدين . والخلاصة ان المستبد يخاف من هؤلاء العلماء العاملين الراشدين المرشدين ؛ لامن العلماء المنافقين او الذين حفر رؤوسهم محفوظات كثيرة كأنها مكتبات مقفلة !

المستبد كما يبغض العلم لنتائجه يبغضه ايضاً لذاته لان للعلم سلطانا اقوى من كل سلطان ، فلا بد للمستبد من ان يستحقر نفسه كلما وقعت عينه على من هو ارقى منه علما . ولذلك لايحب المستبد ان يرى وجه عالم عاقل يفوق عليه فكراً فاذا اضطر لمثل الطبيب والمهندس يختار الغبي المتصاغر المتملق . وعلى هذه القاعدة بنى ابن خلدون قوله (فاز المتملقون) وهذه طبيعة كل المتكبرين بل في غالب الناس وعليها مبنى ثنائهم على كل من يكون مسكينا خاملا لا يرجى خير ولا لشر .

وينتج مما تقدم ان بين الاستبداد والعلم حربا دائمة وطرادا مستمراً : يسعى العلماء في تنوير العقول ويجتهد المستبد في اطفاء نورها ، والطرفان يتجاذبان العوام . ومن هم العوام ؟ هم اولئك الذين اذا جهلوا خافوا ، واذا خافوا استسلموا ،

كما انهم هم الذين متى علموا قالوا ومتى قالوا فعلوا .

العوام هم قوت المستبد وقوته . بهم عليهم يصول ويطـــول ؛ يأسرهم ، فيتهللون لشوكته ، ويغصب اموالهم ، فيحمدونه على ابقائه حياتهم ؛ ويهينهم فيثنون على رفعته ؛ ويغرى بعضهم على بعض ، فيفتخرون بسياسته ، واذا سرف في اموالهم ، يقولون كريماً ؛ واذا قتل منهم ولم يمثل، يعتبرونه رحيماً ويسوقهم الى خطر الموت ، فيطيعونه حذر التوبيخ؛ وان نقم عليه منهم بعض الاباة قاتلهم كأنهم بغاة .

والحاصل ان العوام يذبحون انفسهم بايديهم بسبب الخوف الناشئ عن الجهل والغباوة ، فاذا ارتفع الجهل وتنور العقل زال الخوف ،واصبح الناس لاينقادون طبعاً لغير منافعهم كما قيل : العاقل لايخدم غير نفسه ، وعند ذلك لابد المستبد من الاعتزال والاعتدال . وكم اجبرت الامم بترقيها المستبد اللئيم على الترقي معها والانقلاب رغم طبعه الى وكيل امين يهاب الحساب،ورئيس عادل يخشى الانتقام ، واب حليم يتلذذ بالتحابب . وحينئذ تنال الامة حيـاة رضية هنية ، حياة رخاء ونماء ، حياة عز وسعادة ؛ ويكون حظ الرئيس من ذلك رأس الحظوظ ؛ بعد ان كان في دور الاستبداد اشقى العباد ، لانه كان على الدوام ملحوظا بالبغضاء محاطا بالاخطار ، غير امين على رياسته ،بل وعلى حياته طرفة عين ، ولانه لايرى قط امامه من يسترشده فيما يجهل لان الواقف بين يديه مهما كان عاقلا متيناً ، لابد ان يهابه فيضطرب باله فيتشوش فكره ويختل رأيه فلا يهتدي الى الصواب ،وان اهتدى فلا يجسر على التصريح

به قبل استطلاع رأي المستبد، فان رآه متصلبا فيما يراه فلا يسعه الا تأييده رشداً كان او غياً؛ وكل مستشار غيره يدعي انه غير هياب فهو كذاب؛ والقول الحق ان الصدق لا يدخل قصور الملوك ؛ بناء عليه لا يستفيد المستبد قط من رأي غيره بل يعيش في ضلال وتردد وعذاب وخوف وكفى بذلك انتقاما منه على استعباده الناس وقد خلقهم ربهم احرارا .

ان خوف المستبد من نقمة رعيته اكثر من خوفهم بأسه ، لان خوفه ينشأ عن علمه بما يستحقه منهم ؛ وخوفهم ناشئ عن جهل ؛ وخوفه عن عجز حقيقي فيه ، وخوفهم عن توهم التخاذل فقط ، وخوفه على فقد حياته وسلطانه ، وخوفهم على لقيمات من النبات وعلى وطن يألفون غيره في ايام ؛ وخوفه على كل شيء تحت سماء ملكه ، وخوفهم على حياة تعيسة فقط .

كلما زاد المستبد ظلما واعتسافا زاد خوفه من رعيته وحتى من حاشيته ، حتى ومن هواجسه وخيالاته . واكثر ما تختم حياة المستبد بالجنون التام . قلت التام لان المستبد لا يخلو من الحمق قط لنفوره من البحث عن الحقائق ، واذا صادف وجود مستبد غير احمق فيسارعه الموت قهراً اذا لم يسارعه الجنون او العته ، وقلت انه يخاف من حاشيته لان اكثر ما يبطش بالمستبدين حواشيهم لان هؤلاء هم اشقى خلق الله حياة ، يرتكبون كل جريمة وفظيعة لحساب المستبد الذي يجعلهم يمسون ويصبحون مخبولين مصروعين يجهدون الفكر في استطلاع ما يريد منهم فعله بدون ان يطلب او يصرح . فكم ينقم عليهم ويهينهم لمجرد انهم لا يعلمون الغيب ، ومن ذا الذي يعلم الغيب ، الانبياء والاولياء وما

هؤلاء الا اشقياء ؛ استغفرك اللهم ! لايعلم غيبك نبي ولا ولي ، ولايدعي ذلك الا دجال ولا يظن صدقه الا المغفل ، فانك اللهم قلت وقولك الحق : «ولا يظهر على غيبه احدا » وافضل انبيائك يقول «لو علمت الخير لاستكثرت منه».

من قواعد المؤرخين المدققين ان احدهم اذا اراد الموازنة بين مستبدين كنيرون وتيمور مثلا ، يكتفي ان يوازن درجة ماكانا عليه من التحـــذر والتحفظ . واذا اراد المفاضلة بين عادلين كأنوشروان وعمر الفاروق، يوازن مرتبتي امنهما في قوميهما .

لما كانت اكثر الديانات مؤسسة على مبدأي الخير والشر كالنور والظلام والشمس وزحل ، والعقل والشيطان ،رأت بعض الامم الغابرة ان اضر شيء على الانسان هو الجهل ، واضر آثار الجهل هو الخوف ، فعملت هيـــكلا مخصصاً للخوف يعبد اتقاء لشره .

قال احد المحررين السياسيين : اني ارى قصر المستبد في كل زمان هو هيكل الخوف عينه : فالملك الجبار هو المعبود ، واعوانه هم الكهنة، ومكتبته هي المذبح المقدس ، والاقلام هي السكاكين ، وعبـارات التعظيم هي الصلوات ، والناس هم الاسرى الذين يقدمون قرابين الخوف ؛ هو اهم النواميس الطبيعية في الانسان والانسان يقرب من الكمال في نسبة ابتعاده عن الخوف ولا وسيلة لتخفيف الخوف او نفيه غير العلم بحقيقة المخيف منه ؛ لينكشف للانسان ان لامحل فيه للخوف منه، وهكذا اذا زاد علم افراد الرعية بان المستبد امرؤ عاجز مثلهم زال خوفهم منه وتقاضوه حقوقهم .

ويقول اهل النظر ان خير مايستدل به على درجة استبداد الحكومات هو تغاليها في شئآن الملوك وفخامة القصور وعظمة الحفلات ومراسيم التشريفات وعلائم الابهة ونحو ذلك من التمويهات التي يسترهب بها الملوك رعاياهم عوضاً عن العقل والمفاداة ، وهذه التمويهات يلجأ اليها المستبد كما يلجأ قليل العز للتكبر وقليل العلم للتصوف وقليل الصدق لليمين وقليل المال لزينة اللباس .

ويقولون انه كذلك يستدل على عراقة الامة في الاستعباد او الحرية باستنطاق لغتها هل هي قليلة الفاظ التعظيم كالعربية مثلا ام هي غنيـــة في عبارات الخضوع كالفارسية وكتلك اللغة التي ليس فيها بين المتخاطبين انا وانت بل سيدي وعبدكم .

والخلاصة ان الاستبداد والعلم ضدان متغالبان فكل ادارة مستبدة تسعى جهدها في اطفاء نور العلم ، وحصر الرعية في حالك الجهل . والعلماء الحكماء الذين ينبتون احيانا في مضايق صخور الاستبداد يسعون جهدهم في تنوير افكار الناس ، والغالب ان رجال الاستبداد يطاردون رجال العلم وينكلون بهم فالسعيد منهم من يتمكن من مهاجرة دياره وهذا سبب ان كل الانبياء العظام عليهم الصلاة والسلام واكثر العلماء الاعلام والادباء النبلاء تقلبوا في البلاد وماتوا غرباء .

الاسلامية اول دين حض على العلم وكفى شاهداً ان اول كلمة انزلت من القرآن هي الامر بالقراءة امراً مكرراً ، واول منة اجلها الله وامتن بها على الانسان هي انه علمه بالقلم ، علمه به مالم يعلم . وقد فهم السلف الاول من

مغزى هذا الامر وهذا الامتنان وجوب تعلم القراءة والكتابة على كل مسلم، وبذلك عمت القراءة والكتابة في المسلمين او كادت تعم ، وبذلك صار العلم في الامة حرا مباحا للكل لايختص به رجال الدين اوالاشراف كما كان في الامم السابقة ؛ وبذلك انتشر العلم في سائر الامم اخذا عن المسلمين !ولكن قاتل الله الاستبداد الذي استهان بالعلم حتى جعله كالسلعة يعطى ويمنح للاميين ولا يجرؤ احد على الاعتراض ، اجل ، قاتل الله الاستبداد الذي رجع بالامة الى الامية فالتقى آخرها بأولها ولاحول ولاقوة الا بالله .

قال المدققون ان اخوف مايخافه المستبدون الغربيون من العلم ان يعرف الناس حقيقة ان الحرية افضل من الحياة ، وان يعرفوا النفس وعزها ، والشرف وعظمته ، والحقوق وكيف تحفظ ، والظلم وكيف يرفع،والانسانية وماهي وظائفها ، والرحمة وماهي لذاتها .

اما المستبدون الشرقيون فافئدتهم هواء ترتجف من صولة العلم كان العلم نار واجسامهم من بارود . المستبدون يخافون من العلم حتى من علم الناس معنى كلمة (لااله الا الله) ولماذا كانت افضل الذكر ولماذا بني عليها الاسلام . بني الاسلام بل وكافة الاديان على لااله الا الله ، ومعنى ذلك انه لايعبد حقا سوى الصانع الاعظم ومعنى العبادة الخضوع ومنها لفظة العبد فيكون معنى لااله الا الله : (لايستحق الخضوع شيء غير الله) .ومافضل تكرار هذا المعنى على الذاكرة اناء الليل واطراف النهار تحذرا من الوقوع في ورطة شيء من الخضوع لغير الله وحده . فهل والحالة هذه يناسب غرض المستبدين ان يعلم

عبيدهم ان لاسيادة ولاعبودية في الاسلام ولا ولاية فيه ولاخضوع،انما المؤمنون بعضهم اولياء بعض . كلالايلائم ذلك غرضهم وربما عدوا كلمة لااله الا الله شتماً لهم ! ولهذا كان المستبدون ولا زالوا من انصار الشرك واعداء العلم .

ان العلم لايناسب صغار المستبدين ايضاً كخدمة الاديان المتكبرين وكالآباء الجهلاء والازواج الحمقاء وكرؤساء كل الجمعيات الضعيفة . والحاصل انه ماانتشر نور العلم في امة قط الا وتكسرت فيها قيود الاسر وساء مصير المستبدين من رؤساء سياسة اورؤساء دين .

الاستبداد والمجد

من الحكم البالغة للمتأخرين قولهم « الاستبداد اصل لكل فساد» ومبنى ذلك ان الباحث المدقق في احوال البشر وطبائع الاجتماع كشف ان للاستبداد اثرا سيئا في كل واد ، وقد سبق ان الاستبداد يضغط على العقل فيفسده ويلعب بالدين فيفسده ، ويحارب العلم فيفسده ، واني الآن ابحث في انه كيف يغالب الاستبداد المجد فيفسده ويقيم مقامه التمجد .

المجد هو احراز المرء مقام حب واحترام في القلوب وهو مطلب طبيعي شريف لكل انسان، لايترفع عنه نبي او زاهد ولاينحط عنه دني او خامل . للمجد لذة روحية تقارب لذة العبادة عند الفانين في الله وتعادل لذة العلم عند الحكماء وتربو على لذة امتلاك الارض مع قمرها عند الامراء وتزيد على لذة مفاجأة الاثراء عند الفقراء ولذا يزاحم المجد في النفوس منزلة الحياة .

وقد اشكل على بعض الباحثين اي الحرصين اقوى ؟ حرص الحياة ام حرص المجد ؟ والحقيقة التي عول عليها المتأخرون وميزوا بها تخليط ابن خلدون هي التفضيل ؛ وذلك ان المجد مفضل على الحياة عند الملوك والقواد وظيفة

وعند النجباء والاحرار حمية ؛ وحب الحياة ممتاز على المجد عند الاسراء والاذلاء طبيعة وعند الجبناء والنساء ضرورة ، وعلى هذه القاعدة يكون ائمة آل البيت عليهم السلام معذورين في القائهم بانفسهم في تلك المهالك لانهم لما كانوا نجباء احرارا فحميتهم جعلتهم يفضلون الموت كراما على حياة ذل مثل حياة ابن خلدون الذي خطّأ امجاد البشر في اقدامهم على الخطر اذا هدّد مجدهم ذاهلا عن ان بعض انواع الحيوان ومنها البلبل وجدت فيها طبيعة اختيار الانتحار احيانا تخلصاً من قيود الذل وان اكثر سباع الطير والوحوش اذا اسرت كبيرة تأبى الغذاء حتى تموت وان الحرة تموت ولا تأكل بعرضها والماجدة تموت ولا تأكل بثديها !

المجد لاينال الى بنوع من البذل في سبيل الجماعة وبتعبير الشرقيين في سبيل الله او سبيل الدين . وبتعبير الغربيين في سبيل المدنية او سبيل الانسانية ، والمولى تعالى المستحق التعظيم لذاته ماطالب عبيده بتمجيده الا وقرن الطلب بذكر نعمائه عليهم .

وهذا البذل اما بذل مال للنفع العام ويسمى مجد الكرم وهو اضعف المجد ، او بذل العلم النافع المفيد للجماعة ويسمى مجد الفضيلة ، او بذل النفس بالتعرض للمشاق والاخطار في سبيل نصرة الحق وحفظ النظام ويسمى مجد النبالة ، وهذا اعلى المجد وهو المراد عند الاطلاق ؛ وهو المجد الذي تتوق اليه النفوس الكبيرة وتحن اليه اعناق النبلاء . وكم له من عشاق تلذ لهم في حبه المصاعب والمخاطرات واكثرهم يكون من مواليد بيوت نادرة حتمها الصدف

من عيون الظالمين المذابين ، او يكون من نجباء بيوت ماانقطعت فيها سلسلة المجاهدين وما انقطعت عجائزها عن بكائهم . ومن امثلة المجد قولهم : خلق الله للمجد رجالا يستعذبون الموت في سبيله ،ولا سبيل اليه الا بعظيم الهمة والاقدام والثبات تلك الخصال الثلاث التي بها تقدر قيم الرجال .

وهذا (نيرون) الظالم سأل (اغريبين) الشاعر وهو تحت النطع: من اشقى الناس ؟ فاجابه معرضا به :من اذا ذكر الناس الاستبداد كان مثالا له في الخيال . وكان (ترابان) العادل اذا قلد سيفاً لقائد يقول له: هذا سيف الامة ارجو ان لا اتعدى القانون فلا يكون له نصيب في عنقي . وخرج قيس من مجلس الوليد مغضباً يقول : اتريد ان تكون جبار أو الله ان نعال الصعاليك لاطول من سيفك . وقيل لاحد الاباة مافائدة سعيك غير جلب الشقاء على نفسك فقال : ما احلى الشقاء في سبيل تنغيص الظالمين .وقال آخر : عليّ ان افي بوظيفتي وما عليّ ضمان القضاء . وقيل لاحد النبلاء : لماذا لاتبني لك دارا؟ فقال ماصنع فيها وانا المقيم على ظهر الجواد او في السجن او في القبر ، وهذه ذات النطاقين (اسماء بنت ابي بكر رضي الله عنهـــا) وهي امرأة عجوز تودع ابنها بقولها : ان كنت على الحق فاذهب وقاتل الحجاج حتى تموت . وهذا مكماهون رئيس جمهورية فرنسا استبد في امر واحد فدخل عليه صديقه غامبتا وهو يقول: الامر للامة لااليك ،فاعتدل او اعتزل والا فانت المخذول المهان الميت! والحاصل ان المجد هو المحبب للنفوس،لاتفتأ تسعى وراءه وترقى مراقيه ، وهو ميسر في عهد العدل لكل انسان على حسب استعداده وهمته ، وينحصر تحصيله في زمن الاستبداد بمقاومة الظلم على حسب الامكان .

يقابل المجد من حيث مبناه التمجد؟ وماهو التمجد؟ وماذا يكون التمجد؟ التمجد لفظ هائل المعنى ولهذا اراني اتعثر بالكلام واتلعثم في الخطاب ، ولاسيما من حيث اخشى مساس احساس بعض المطالعين ؛ ان لم يكن من جهة انفسهم فمن جهة اجدادهم الاولين ، فاناشدهم الوجدان والحق المهان ، ان يتجردوا دقيقتين من النفس وهواها ، ثم هم مثلي ومثل سائر الجانين على الانسانية لايعدمون تأويلا . واني اعلل النفس بقبولهم تهويني هذا فانطلق واقول:

التمجد خاص بالادارات المستبدة ، وهو القربى من المستبد بالفعل كالاعوان والعمال ، او بالقوة كالملقبين بنحو دوق وبارون ، والمخاطبين بنحو رب العزة ورب الصولة ، او الموسومين بالنياشين او المطوقين بالحمائل ؛ وبتعريف آخر التمجد هو ان ينال المرء جذوة نار من جهنم كبرياء المستبد ليحرق بها شرف المساواة في الانسانية .

وبوصف اجلى هو ان يتقلد الرجل سيفا من قبل الجبار يبرهن به على انه جلاد في دولة الاستبداد ، او يعلق على صدره وساما مشعراً بما وراءه من الوجدان المستبيح للعدوان او يتزين بسيور مزركشة تنبئ بأنه صار مخنثاً اقرب الى النساء منه الى الرجال ، وبعبارة اوضح واخصر هو ان يصير الانسان مستبداً صغيراً في كنف المستبد الاعظم .

قلت ان التمجد خاص بالادارات الاستبدادية ، وذلك لان الحكومة الحرة التي تمثل عواطف الامة تأبى كل الاباء اخلال التساوي بين الافراد الا لفضل حقيقي فلا ترفع قدر احد منها الا رفعاً صوريا اثناء قيامه في

خدمتها اي الخدمة العمومية وذلك تشويقاً له على التفاني في الخدمة، كما انها لاتميز احدا منها بوسام او تشرفه بلقب الا ما كان علمياً او ذكرى لخدمة مهمة وفقه الله اليها . وبمثل هذا يرفع الله الناس بعضهم فوق بعض درجات في القلوب لا في الحقوق .

وهذا لقب اللوردية مثلا عند الانكليز هو من بقايا عهد الاستبداد ومع ذلك لاينال عندهم غالباً الا من يخدم امته خدمة عظيمة ويكون من حيث اخلاقه وثروته اهلا لان يخدمها خدما مهمة غيرها ، ومن المقرر ان لااعتبار للورد في نظر الامة الا اذا كان مؤسساً لاوارثا ، او كانت الامة تقرأ في جبهته سطرا محرراً بقلم الوطنية وبمداد الشهامة ممضى بدمه يقسم فيه بشرفه انه ضمين بثروته وحياته ناموس الامة اي قانونها الاساسي، حفيظ على روحها اي حريتها .

التمجد لايكاد يوجد له اثر في الامم القديمة الا في دعوى الالوهية وما بمعناها من نفع الناس بالانفاس ، او في دعوى النجابة بالنسب التي يهول بها الاصلاء نسل الملوك والامراء ، وانما نشأ التمجد بالالقاب والشارات في القرون الوسطى وراج سوقه في القرون الاخيرة ثم قامت فتاة الحرية تتغنى بالمساواة وتغسل ادرانه على حسب قوتها وطاقتها ولم تبلغ غايتها الى الآن في غير امريكا .

المتمجدون يريدون ان يخدعوا العامة ، وما يخدعون غير نسائهم اللاتي يتفحفحن بين عجائز الحي بانهم كبار العقول كبار النفوس احرار في شؤونهم

لايزاح لهم نقاب ، ولاتصفع منهم رقاب ؛ فيحوجهم هـــذا المظهر الكاذب لتحمل الاساءات والاهانـات التي تقع عليهم من قبل المستبد بل تحوجهم للحرص على كتمها بل على اظهار عكسها ، بل على مقاومة من يدعي خلافهـا ، بل على تغليط افـكار الناس في حق المستبـد وابعـادهم عن اعتقاد ان من شأنه الظلم .

وهـكذا يكون المتمجدون اعداء للعدل انصاراً للجور ، لادين ولا وجدان ولاشرف ولا رحمة ، وهذا مايقصده المستبد من ايجادهم والاكثار منهـــم ليتمكن بواسطتهم من ان يغرر الامة على اضرار نفسها تحت اسم منفعتها ؛ فيسوقها مثلا لحرب اقتضاها محض التجبر والعدوان على الجيران فيوهمها انه يريد نصرة الدين . او يسرف بالملايين من اموال الامة في ملذاته وتأييـد استبداده باسم حفظ شرف الامة وابهة المملكة . او يستخدم الامة في التنكيل باعداء ظلمه باسم انهم اعداء لها . او يتصرف في حقوق المملكة والامـة كما يشاؤه هواه باسم ان ذلك من مقتضى الحكمة والسياسة .

والخلاصة ان المستبد يتخذ المتمجدين سماسرة لتغرير الامة باسم خدمة الدين ، او حب الوطن او توسيع المملكة او تحصيل منافع عامة او مسئولية الدولة او الدفاع عن الاستقلال ، والحقيقة ان كل هذه الدواعي الفخيمة العنوان في الاسماع والاذهان ماهي الا تخييل وايهام يقصد بها رجال الحكومة تهييج الامة وتضليلها حتى انه لايستثنى منها الدفاع عن الاستقلال ، لانه ماالفرق على امة مأسورة لزيد ان يأسرها عمرو ؟ وما مثلها الا الدابة الـــتي

لايرحمها راكب مطمئن مالكا كان او غاصباً .

المستبد لايستغني عن ان يستمجد بعض افراد من ضعاف القلوب الذين هم كبقر الجنة لاينطحون ولايرحمون ، يتخذهم كانموذج البائع الغشاش على انه لايستعملهم في شيء من مهامه فيكونوا لديه كمصحف في خمارة او سبحة في يد زنديق ، وربما لايستخدم احياناً بعضهم في بعض الشئون تغليطاً لاذهان العامة في انه لايتعمد استخدام الاراذل والاسافر فقط ولهذا يقال دولة الاستبداد دولة بله واوغاد

المستبد يجرب احيانا في المناصب والمراتب بعض العقلاء الاذكياء ايضاً اغترار أمنه بانه يقوى على تليين طينهم وتشكيلهم بالشكل الذي يريد فيكونوا له اعوانا خبثاء ينفعونه بدهائهم ، ثم هو بعد التجربة اذا خاب ويئس من افسادهم يتبادر ابعادهم او ينكل بهم . ولهذا لايستقر عند المستبد الا الجاهل العاجز الذي يعبده من دون الله ، او الخبيث الخائن الذي يرضيه ويغضب الله.

وهنا انبه فكر المطالعين الى ان هذه الفئة من العقلاء الامناء بالجملة الذين يذوقون عسيلة مجد الحكومة وينشطون لخدمة الامة ونيل مجد النبالة، ثم يضرب على يدهم لمجرد ان بين اضلعهم قبسة من الايمان وفي اعينهم بارقة من الانسانية ، هي الفئة التي تتكهرب بعداوة الاستبداد وينادى افرادها بالاصلاح . وهذا الانقلاب قد اعيا المستبدين لانهم لايستغنون عن التجربة ولايأمنون هذه المنبة . ومن هنا نشأ اعتمادهم في التجربة غالبا على العريقين في خدمة الاستبداد الوارثين من آبائهم واجدادهم الاخلاق

المرضية للمستبدين ، ومن هنا ابتدأت في الامم نغمة التمجد بالاصالة والانساب، والمستبدون المحنكون يطيلون امد التجربة بالمناصب الصغيرة فيستعملون قاعدة الترقي مع التراخي ويسمون ذلك برعاية قاعدة القدم ، ثم يختمون التجريب باعطاء المتمرن خدمة يكون فيها رئيسا مطلقاً ولو في قرية فان اظهر مهارة في الاستبداد وذلك مايسمونه حكمة الحكومة فيها ونعمت والاقالوا عنه هذا حيوان ياضيعة الامل فيه .

ان للاصالة مشاكلة قوية للمجد والتمجد فلا بد ان نبحث فيها قليلا ثم نعود لموضوع المستبد واعوانه المتمجدين فاقول :

الاصالة صفة قد يكون لها بعض المزايا من حيث الاميال التي يرثها الابناء من الآباء ، ومن حيث التربية التي تكون مستحكمة في البيت ولو رياء، ومن حيث ان الاصالة تكون مقرونة غالبا بشيء من الثروة المعينة على مظاهر الشهامة والرحمة ، ومن حيث ان الثروة تعين اهل البيت على اخفاء بعض رذائلهم عن اولادهم ومن حيث انها مدعاة غالبا للتمثل بالاقران مشوقة للتفوق والتميز ، ومن حيث تقويتها العلاقة بالامة والوطن خوف مذلة الاغتراب ، ومن حيث ان اهلها يكونون منظورين دائماً فيتحاشون المعائب والنقائص بعض التحاشي .

وبيوت الاصالة تنقسم الى ثلاثة انواع : بيوت علم وفضيلة ، وبيوت مال وكرم ، وبيوت ظلم وامارة .وهذا الاخير هو القسم الاكثر عدداً والاهم موقعاً وهم كما سبقت الاشارة اليه مطمح نظر المستبد في الاستعانة وموضع

ثقته ، وهم الجند الذي يجتمع تحت لوائه بسهولة وربما يكفيه ان يضحك في وجههم ضحكة . فلننظر ماهو نصيب اهل هذا القسم من تلك المزايا الموروثة:

هل يرث الابن من جده المؤسس لمجده امياله في العدالة ولم توجد ، ام يدب ويشب على غير الشرف المصغر للعقول ، المميت للهمم ، ام يتربى على غير الوقار المضحك الباطل السائد فيما بين العائلة في بيتهم ، ام يستخدم الثروة في غير الملاذ الجسمية الدنيئة البهيمية وتلك الابهة الطاووسية الباطلة ، ام يتمثل بغير اقران السوء المتملقين المنافقين ، ام لايستحقر قومه لجهلهم قدر النطفة الملعونة التي خلق منها جنابه ، ام لا يبغض العلماء الذين لايقدرونه قدره حسبما هو قائم في مخيلة خيلائه ، ام يرى لجنابه مقرا يليق به غير مقعد التحكم ومستراح التأمر ، ام يستحي من الناس ومن هم الناس ؟ ماالناس عند حضرته غير اشباح فيها ارواح خلقت لخدمته !

وهذه حالة الاكثرين من الاصلاء ؛ على اننا لانبخس حق من نال منهم حظاً من العلم واوتي الحكمة واراد الله به خيرا فاصابه بنصيب من القهر انخفض به شاموخ انفه ، فان هؤلاء وقليل ما هم ينجبون نجابة عظيمة عجيبة فيصدق عليهم انهم قد ورثوا قوة القلب يستعملونها في الخير لا في الشر ، واستفادوا من انفة الكبرياء الجسارة على العظماء ؛ وهكذا تتحول فيهم ميزة الشر الى فائض خير وحسب شامخ من نحو الحنين على الوطن واهله والانين لمصابه والاقدام على العظائم في سبيل القوم ؛ وامثال هؤلاء النوابغ النجباء اذا كثروا في امة يوشك ان يترقى منهم آحاد الى درجة الخوارق فيقودوا امهم

الى النجاح والفلاح ، ولا غرو فان اجتماع نفوذ النسب وقوة الحسب يفعلان ولا عجب شبه فعل المستبد العادل الذي ينشده الشرقيون وخصوصاً المسلمون؛ وان كان العقل لايجوّز ان يتصف بالاستبداد مع العدل غير الله وحده ؛ الا قاتل الله الهمة الساقطة التي قد تتسفل بالانسان الى عدم اتعاب الفكر فيما يطلب هل هو ممكن ام هو محال .

★ ★ ★

الاصلاء باعتبار اكثريتهم هم جرثومة البلاء في كل قبيلة ومن كل قبيل. لان بني آدم داموا اخواناً متساوين الى ان ميزت الصدفة بعض افرادهم بكثرة النسل فنشأت منها القوات العصبية ؛ ونشأ من تنازعها تميز افراد على افراد، وحفظ هذه الميزة اوجد الاصلاء فالاصلاء في عشيرة او امة اذا كانوا متقاربي القوات استبدوا على باقي الناس واسسوا حكومة اشراف ، ومتى وجد بيت من الاصلاء يتميز كثيرا في القوة على باقي البيوت يستبد وحده ويؤسس الحكومة الفردية المقيدة اذا كان لباقي البيوت بقية بأس ، او المطلقة اذا لم يبق امامه من يتقيه .

بناء عليه اذا لم يوجد في امة اصلاء بالكلية ، اووجد ولكن كان لسواد الناس صوت غالب ، اقامت تلك الامة لنفسها حكومة انتخابية لاوراثة فيها ابتداءً ولكن لايتوالى بضع متولين الا ويصير انسالهم اصلاء يتناظرون، كل فريق منهم يسعى لاجتذاب طرف من الامة استعدادا للمغالبة واعادة التاريخ الاول.

ومن اكبر مضار الاصلاء ، انهم ينهمكون اثناء المغالبة على اظهار الابهة والعظمة ، يسترهبون اعين الناس ويسحرون عقولهم ويتكبرون عليهم . ثم اذا غلب غالبهم واستبد بالامر لايتركها الباقون لألفتهم لذتها ولمضاهاة المستبد في نظر الناس . والمستبد نفسه لايحملهم على تركها بل يدر عليهم المال ويعينهم عليها ويعطيهم الالقاب والرتب وشيئاً من النفوذ والتسلط على الناس ليتلهوا بذلك عن مقاومة استبداده ،ولاجل ان يألفوها مديداً فتفسد اخلاقهم فينفر منهم الناس ولا يبقى لهم ملجأ غير بابه فيصيرون اعوانا له بعد ان كانوا اضداداً .

ويستعمل المستبد ايضاً مع الاصلاء سياسة الشد والارخاء ، والمنع والاعطاء ، والالتفات والاغضاء كي لا يبطروا ، وسياسة القاء الفساد واثارة الشحناء فيما بينهم كي لايتفقوا عليه ؛ وتارة يعاقب عقابا شديداً باسم العدالة ارضاء للعوام ، واخرى يقرنهم بافراد كانوا يقبلون اذيالهم استكباراً فيجعلهم سادة عليهم يفركون آذانهم استحقاراً ، يقصد بذلك كسر شوكتهم امام امام الناس وعصر انوفهم امام عظمته . والحاصل ان المستبد يذلل الاصلاء بكل وسيلة حتى يجعلهم مترامين دائماً بين رجليه كي يتخذهم لجاما لتذليل الرعية ، ويستعمل عين هذه السياسة مع العلماء ورؤساء الاديان الذين متى شم من احدهم رائحة الغرور بعقله او علمه ينكل به او يستبد له بالاحمق الجاهل ايقاظا له ولأمثاله من كل ظان من ان ادارة الظلم محتاجة الى شيء من العقل او الاقتدار فوق مشيئة المستبد . وبهذه السياسة ونحوها يخلو الجو فيعصف

ويذ-ف ويتصرف في الرعية كريش يقلبه الصرصر في جو محرق .

المستبد في لحظة جلوسه على عرشه ووضع تاجه الموروث على رأسه يرى نفسه كان انساناً فصار إلهاً . ثم يرجع النظر فيرى نفســـه في نفس الامر اعجز من كل عاجز وانه ما نال ما نال الا بواسطة من حوله من الاعــــوان، فيرفع نظره اليهم فيسمع لسان حالهم يقول له : ما العرش وما التاج وما الصولجان؟ ما هذه الا اوهام في اوهام . هـل يجعلك هذا الريش في رأسك طاووسـا وانت غراب ، ام تظن الاحجار البراقة في تاجك نجوما ورأسك سماء ، ام تتوهم ان زينة صدرك ومنكبيك اخرجتك عن كونك قطعة طين من هذه الارض ؟ والله ما مكنك في هذا المقام وسلطك على رقاب الانام الا شعوذتنا وسحرنا وامتهاننا لديننا ووجداننا وخيانتنا لوطننا واخواننا فانظر ايهـــا الصغير المكبر الحقير الموقر كيف تعيش معنا !

ثم يلتفت الى جماهير الرعية المتفرجين منهم الطائشين المهللين المسبحين بحمده ومنهم المسحورين المبهوتين كأنهم اموات من حين ؛ ولكن يتجلى في فكره ان خلال الساكتين بعض افراد عقلاء امجاد يخاطبونه بالعيون بأن انا معاشر الامة شؤونا عمومية وكلناك في قضائها على ما نريد ونبغي، لا على ما تريد فتبغي . فان وفيت حق الوكالة حق لك الاحترام وان مكرت مكرنا وحاقت بك العاقبة الا ان مكر الله عظيم .

وعندئذ يرجع المستبد الى نفسه قائلاً الاعوان الاعوان ، الحملة السدنة اسلمهم القيـاد واردفهم بجيش من الاوغاد احارب بهم هؤلاء العبيد العقلاء ،

وبغير هذا الحزم لايدوم لي ملك كيفما اكون بل ابقى اسيرا للعدل معرضا للمناقشة منغصاً في نعيم الملك ، ومن العار ان يرضى بذلك من يمكنه ان يكون سلطانا جباراً متفردا قهاراً .

الحكومة المستبدة تكون طبعاً مستبدة في كل فروعها من المستبد الاعظم الى الشرطي ، الى الفراش ، الى كناس الشوارع ؛ ولا يكون كل صنف الا من اسفل اهل طبقته اخلاقا لان الاسافل لايهمهم طبعاً الكرامة وحسن السمعة انما غاية مسعاهم ان يبرهنوا لمخدومهم بانهم على شاكلته ، وانصار لدولته ، وشرهون لاكل السقطات من اي كانت ولو بشرا ام خنازير ، آبائهم ام اعدائهم ، وبهذا يأمنهم المستبد ويأمنونه فيشاركهم ويشاركونه . وهذه الفئة المستخدمة يكثر عددها ويقل حسب شدة الاستبداد وخفته ، فكلما كان المستبد حريصاً على العسف احتاج الى زيادة جيش المتمجدين العاملين له المحافظين عليه ، واحتاج الى مزيد الدقة في اتخاذهم من اسفل المجرمين الذين لاأثر عندهم لدين او ذمة ، واحتاج لحفظ النسبة بينهم في المراتب بالطريقة المعكوسة وهي ان يكون اسفلهم طباعا وخصالا اعلاهم وظيفة وقربا ؛ لهذا لابد ان يكون الوزير الاعظم للمستبد هو اللئيم الاعظم في الامة ، ثم من دونه دونه لؤما وهكذا تكون مراتب الوزراء والاعوان في لؤمهم حسب مراتبهم في التشريفات والقربى منه ، وربما يغتر المطالع كما اغتر كثير من المؤرخين البسطاء بأن بعض وزراء المستبدين يتأوهون من المستبد ويتشكون من اعماله ويجهرون بملامه ويظهرون لو انه ساعدهم

الامكان لعملوا وفعلوا وافتدوا الامة باموالهم بل وحياتهم ؛ فكيف والحالة هذه يكون هؤلاء لؤماء، بل كيف ذلك وقد وجد منهم الذين خاطروا بانفسهم والذين اقدموا فعلا على مقاومة الاستبداد فنالوا المراد او بعضه اوهلكوا دونه ؟

فجواب ذلك ان المستبد لايخرج قط عن انه خائن خائف محتاج لعصابة تعينه وتحميه فهو ووزراءه كزمرة لصوص : رئيس واعوان. فهل يجوّز العقل ان يُنتخب رفاق من غير اهل الوفاق وهو هو الذي لايستوزر الا بعد تجربة واختبار عمرا طويلا .

هل يمكن ان يكون الوزير متخلقاً بالخير حقيقة وبالشر ظاهرا فيخدع المستبد باعماله ولايخاف من انه كما نصبه واعزه بكلمة يعزله ويذله ؟

بناء عليه فالمستبد وهو من لايجهل ان الناس اعداؤه لظلمه لايأمن على بابه الا من يثق به انه اظلم منه للناس وابعد منه عن اعدائه ؛ واما تلوم بعض الوزراء على لوم المستبد فهو ان لم يكن خداعا للامة فهو حنق على المستبد لانه بخس ذلك المتلوم حقه فقدم عليه من هو دونه في خدمته بتضحية دينه ووجدانه . وكذلك لايكون الوزير امينا من صولة المستبد في صحبته مالم يسبق بينهما وفاق واتفاق على خيرة الشيطان ؛ لان الوزير محسود بالطبع يتوقع له المزاحمون كل شر ويبغضه الناس ولو تبعا لظالمهم وهو هدف في كل ساعة للشكايات والوشايات . كيف يكون عند الوزير شيء من التقوى او الحياء او العدل او الحكمة او المروءة او الشفقة على الامة وهو العالم بأن

الامة تبغضه وتمقته وتتوقع له كل سوء وتشمت بمصائبه فلا ترضى عنه مالم يتفق معها على المستبد وما هو بفاعل ذلك ابداً الا اذا يئس من اقباله عنده ، وان يئس وفعل فلا يقصد نفع الامة قط ، انما يريد فتح باب لمستبد جديد عساه يستوزره فيؤازره على وزره .

والنتيجة ان وزير المستبد هو وزير المستبد ، لاوزير الامة كما في الحكومات الدستورية . كذلك القائد يحمل سيف المستبد ليغمده فى الرقاب بامر المستبد لابامر الامة ؛ بل هو يستعيذ من ان تكون الامة صاحبة امر ، لما يعلم من نفسه ان الامة لاتقلد القيادة لمثله .

بناء عليه لايغتر العقلاء بما يتشدق به الوزراء والقواد من الانكار على الاستبداد والتفلسف بالاصلاح وان تلهفوا وان تأففوا ولا ينخدعون لمظاهر غيرتهم وان ناحوا وان بكوا . ولايثقون بهم وبوجدانهم مهما صلوا وسبحوا لان ذلك كله ينافي سيرهم وسيرتهم ، ولادليل على انهم اصبحوا يخالفون ماشبوا وشابوا عليه ؛ هم اقرب ان لايقصدوا بتلك المظاهر غير اقلاق المستبد وتهديد سلطته ليشاركهم في استدرار دماء الرعية اي اموالها . نعم ، كيف يجوز تصديق الوزير والعامل الكبير الذي قد الف عمراً طويلا لذة البذخ وعزة الجبروت في انه يرضى بالدخول تحت حكم الامة ويخاطر بعرض سيفه عليها فتحله او تكسره تحت ارجلها . اليس هو عضو ظاهر الفساد من جسم تلك الامة التى قتل الاستبداد فيها كل الاميال الشريفة العالية فابعدها عن الانس بالانسانية حتى صار الفلاح التعيس منها يؤخذ للجندية وهو يبكي فلا يكاد

يلبس كم السترة العسكرية الا ويتلبس بشر الاخلاق فيتنمر على امه وابيه ويتمرد على اهل قريته وذويه ويكظ اسنانه عطشاً للدماء لايميز بين اخ او عدو . ان اكابر رجال عهد الاستبداد لاخلاق لهم ولاذمة، فكل مايتظاهرون به احياناً من التذمر والتألم يقصدون به غش الامة المسكينة التي يطمعهم في انخداعها وانقيادها لهم علمهم بان الاستبداد القائم بهم والمستمر بهمتهم قد اعمى ابصارها وبصائرها ، وخدر اعصابها فجعلها كالمصاب ببحران الحمى فهي لاترى غير هول وشدة وآلام ؛ فتئن من البلاء ولا تدري ماهو تداويه ولا من اين جاءها لتصده ،فتواسيها فئـــة من اولئك المتعاظمين باسم الدين يقولون يابؤساء :هذا قضاء من السماء لامرد له فالواجب تلقيه بالصبر والرضاء والالتجاء الى الدعاء فاربطوا السنتكم عن اللغو والفضول واربطوا قلوبكم باهل السكينة والخمول واياكم التدبير فان الله غيور وليكن وردكم : اللهم انصر سلطاننا وآمنا في اوطاننا واكشف عنا البلاء انت حسبنا ونعم الوكيل. ويغرر الامة آخرون من المتكبرين بانهم الاطباء الرحماء المهتمون بمداواة المرض ؛ انما هم يترقبون سنوح الفرص، وكلا الفريقين والله اما ادنياء جبناء اوهم خائنون مخادعون ، يريدون التثبيط والتلبيد والامتنان على الظالمين .

من دلائل ان اولئك الاكابر مغرّرون مخادعون يظهرون مالا يبطنون ، انهم لايستصنعون الا الاسافل الاراذل من النـاس ولايميلون لغير المتملقين المنافقين من اهل الدين كما هو شأن صاحبهم المستبد الاكبر ومنها انه قديوجد فيهم من لايتنزل لقليل الرشوة او السرقة ؛ ولكن ليس فيهم العفيف عن

الكثير وكفى بما يتمتعون من الثروات الطائلة التي لامنبت لها غير الجاه برهاناً فاضحاً لو كانوا يستحون . ومنها ان ليس فيهم غير المستبيح المفاخر بمشاركة المستبد في امتصاص دم الامة ، ذلك باخـــذهم العطايا الكبيرة والرواتب الباهظة ، التي تعادل اضعاف مائسمح به الادارة العادلة لامثالهم لانها ادارة راشدة لاتدفع اجوراً زائدة . ومنها انهم لايصرفون شيئاً ولو سراً من هذا السحت [1] الكثير في سبيل مقاومة الاستبداد الذي يزعمون انهم اعداؤه ، انما يصرف بعضهم منه شيئاً في الصدقات الطفيفة وبناء المعابد سمعة ورياء ، وكانهم يريدون ان يسرقوا ايضاً قلوب الناس بمدسلب اموالهم او انهم يرشون الله ، الا ساء مايتوهمون . ومنها ان اكثرهم مسرفون مبذرون فلا تكفي احدهم الرواتب المعتدلة التي يمكن ان ينالها اجرة خدمة لاثمن ذمة . ومنها انه قد يكون احدهم شحيحاً مقتراً في نفقاته بحيث يخل في شرف مقامه فلا يصرف نصف او ربع راتبه مع انه يقبضه زائداً على اجر مثله لاجل حفظ شرف المقام العائد لشرف الامة ، وبهذا الشح يكون خائناً ومهيناً . والحاصل ان الاكابر حريصون على ان يبقى الاستبداد مطلقاً لتبقى ايديهم مطلقة في الاموال .

هذا ولا ينكر التاريخ ان الزمان اوجد نادراً بعض وزراء وازروا الاستبداد عمراً طويلا ثم ندموا على مافرطوا فتابوا وانابوا ، ورجعوا لصف الامة واستعدوا باموالهم وانفسهم لانقاذها من داء الاستبداد . ولهذا لايجوز

---

[1] السحت : المال الحرام

اليأس من وجود بعض افراد من الوزراء والقواد عريقين في الشهامة ؛ فيظهر فيهم سر الوراثة ولو بعد بطون او بعد الاربعين وربما السبعين من اعمارهم ظهوراً بيناً تلألأ في محيا صاحبه ثريا صدق النجابة . ولا ينبغي لأمة ان تتكل على ان يظهر فيها امثال هؤلاء ؛ لان وجودهم من نوع الصدف التي لاتبنى عليها آمال ولا احلام .

والنتيجة ان المستبد فرد عاجز لاحول له ولا قوة الا بالمتمجدين ، والامة ،اي امة كانت، ليس لها من يحك جلدها غير ظفرها ولا يقودها الا العقلاء بالتنوير والاهداء والثبات ، حتى اذا ماانكفهرت سماء عقول بنيها قيض الله لها من جمعهم الكبير افراداً كبار النفوس قادة ابرارا يشترون لها السعادة بشقائهم والحياة بموتهم ، حيث يكون الله جعل في ذلك لذتهم ولمثل تلك الشهادة الشريفة خلقهم كما خلق رجال عهد الاستبداد فساقا فجاراً مهالكهم الشهوات والمثالب . فسبحان الذي يختار من يشاء لما يشاء وهو الخلاق العظيم .

الاستبداد والمال

الاستبداد لو كان رجلا وارادان يحتسب وينتسب لقال: «انا الشر وابي الظلم وامي الاساءة واخي الغدر واختي المسكنة وعمي الضرّ وخالي الذل وابني الفقر وبنتي البطالة وعشيرتي الجهالة ووطني الخراب ، اما ديني وشرفي وحياتي فالمال المال المال» .

المال يصح في وصفه ان يقال : القوة مال ،والوقت مال ، والعقل مال ، والعلم مال ، والدين مال ،والثبات مال ، والجاه مال ، والجمال مال، والترتيب مال ، والاقتصاد مال ، والشهرة مال،والحاصل كل ماينتفع به في الحياة هو مال .

وكل ذلك يباع ويشترى اي يستبدل بعضه ببعض ،وموازين المعادلة هي: الحاجة والعزة والوقت والتعب ، ومحافظة اليد والفضة والذهب والذمة ، وسوقه المجتمعات وشيخ السوق السلطان . . . فانظر في سوق يتحكم فيه مستبد يأمر زيدا بالبيع وينهى عمروا عن الشراء ويغصب بكراماله ويحابي خالدا من مال الناس .

المال تعتوره الاحكام ، فمنه الحلال ومنه الحرام وهما بينان ولنعم الحاكم

فيها الوجدان ؛ فالحلال الطيب ما كان عوض اعيان ، او اجرة اعمال ، او بدل وقت او مقابل ضمان . والمال الخبيث الحرام هو ثمن الشرف ، ثم المغصوب ، ثم المسروق ، ثم المأخوذ الجاءا [1] ثم المحتال فيه .

ان النظام الطبيعي في كل الحيوانات حتى في السمك والهوام، الاانثى العنكبوت ، ان النوع الواحد منها لايأكل بعضه بعضاً والانسان يأكل الانسان . ومن غريزة سائر الحيوان ان يلتمس الرزق من الله اي من مورده الطبيعي، وهذا الانسان الظالم نفسه حريص على اختطافه من يداخيه ، بل من فيه ، بل كم اكل الانسان الانسان !

الاستبداد والانسان :

عاش الانسان دهراً طويلاً يتلذذ بلحم الانسان ويتلمظ بدمائه الى ان تمكن الحكماء في الصين ثم الهند من ابطال اكل اللحم كليا سدا للباب كما هو دأبهم الى الآن . ثم جاءت الشرائع الدينية الاولى في غربي آسيا بتخصيص مايؤكل من الانسان بأسير الحرب ثم بالقربان ينذر للمعبود ويذبح على يد الكهان . ثم ابطل اكل لحم القربان وجعل طعمة للنيران وهكذا تدرج الانسان الى نسيان لذة لحم اخوانه ، وما كان لينسى عبادة اهراق الدماء لولا ان ابراهيم شيخ الانبياء استبدل قربان البشر بالحيوان واتبعه موسى عليها

---

[1] الالجاء : جعل المال لبعض الورثة دون الآخرين .

السلام وبه جاء الاسلام . وهكذا بطل هذا العدوان بهذا الشكل الا في اواسط افريقيا عند (النامنام) .

الاستبداد المشئوم لم يرض ان يقتل الانسان الانسان ذبحاً ليأكل لحمه اكلا كما كان يفعل الهمج الاولون ، بـــل تفنن في الظلم : فالمستبدون يأسرون جماعتهم ويذبحونهم فصدا بمبضع الظلم ، ويمتصون دماء حياتهم بغصب اموالهم ، ويقصرون اعمارهم باستخدامهم سخرة في اعمالهم ، او بغصب ثمرات اتعابهم . وهكذا لافرق بين الاولين والآخرين في نهب الاعمار وازهـاق الارواح الا في الشكل .

* * *

ان بحث الاستبداد والمال بحث قوي العلاقة بالظلم القـــائم في فطرة الانسان ، ولهذا رأيت انلا بأس في الاستطراد لمقدمات تتعلق نتائجها بالاستبداد الاجتماعي المحمي بقلاع الاستبداد السياسي ، فمن ذلك :

ان البشر المقدر مجموعهم بألف وخمسمأة مليون نصفهم كـل على النصف الآخر ويشكل اكثرية هذا النصف الكل نساء المدن . ومن النساء ؟ النساء هن النوع الذي عرف مقامه في الطبيعة بأنه هو الحافظ لبقاء الجنس ، وانه يكفي للالف منه ملقح واحد ، وان باقي الذكور حظهم ان يساقوا للمخاطر والمشاق او هم يستحقون مايستحقه ذكر النحل وبهذا النظر اقتسمت النساء مع الذكور اعمال الحياة قسمة ضيزى ؛ وتحكمن بسن قانون عام به جعلن

نصيبهن هين الاشغال بدعوى الضعف ، وجعلن نوعهن مطلوبا عزيزاً بايهام العفة ، وجعلن الشجاعة والكرم سيئتين فيهن محمدتين في الرجال ، وجعلن نوعهن يهين ولايهان ويَظلم او يُظلم فيمان ؛ وعلى هذا القانون يربون البنات والبنين ويتلاعبن بعقول الرجال كما يشأن حتى انهن جعلن الذكور يتوهمون انهن اجمل منهم صورة . والحاصل انه قد اصاب من سماهن بالنصف المضر! ومن المشاهد ان ضرر النساء بالرجال يترقي مع الحضارة والمدنية على نسبة الترقي المضاعف . فالبدوية تشارك الرجل مناصفة في الاعمال والثمرات فتعيش كما يعيش ، والحضرية تسلب الرجل لاجل معيشتها وزينتها اثنين من ثلاث وتعينه في اعمال البيت . والمدنية تسلب ثلاثة من اربعة وتود ان لاتخرج من الفراش ، وهكذا تترقى بنات العواصم في اسر الرجال. وما اصدق بالمدنية الحاضرة في اوروبا ان تسمى المدنية النسائية لان الرجال فيها صاروا انعاما للنساء .

ثم ان الرجال تقاسموا مشاق الحياة قسمة ظالمة ايضاً، فان اهل السياسة والاديان ومن يلتحق بهم وعددهم لايبلغ الخمسة في المأة ، يتمتعون بنصف مايتجمد من دم البشر او زيادة ، ينفقون ذلك في الرفه والاسراف مثال ذلك انهم يزينون الشوارع بملايين من المصابيح لمرورهم فيها احيانا متراوحين بين الملاهي والمواخير ولايفكرون في ملايين من الفقراء يعيشون في بيوتهم في ظلام .

ثم اهل الصنائع النفيسة والكمالية والتجار الشرهون والمحتكرون

وامثال هذه الطبقة ويقدرون كذلك بخمسة في المأة ، يعيش احدهم بمثل مايعيش به العشرات او المئات او الالوف من الصناع والزراع . وجرثومة هذه القسمة المتفاوتة المتباعدة الظالمة هي الاستبداد لاغيره . وهناك اصناف من الناس لايعملون الاقليلا ؛ انما يعيشون بالحيلة كالسماسرة والمشعوذين باسم الادب اوالدين، وهؤلاء يقدرون بخمسة عشر في المئة او يزيدون على اولئك.

نعم لايقتضي ان يتساوى العالم الذي صرف زهوة حياته في تحصيل العلم النافع او الصنعة المفيدة بذاك الجاهل النائم في ظل الحائط ولا ذاك التاجر المجتهد المخاطر بالكسول الخامل، ولكن العدالة تقتضي غير ذلك التفاوت بل تقتضي الانسانية ان يأخذ الراقي بيد السافل فيقربه من منزلته ويقاربه في معيشته ويعينه على الاستقلال في حياته .

لا ! لا ! لايطلب الفقير معاونة الغني ، انما يرجوه ان لايظلمه ، ولا يلتمس منه الرحمة ، انما يلتمس العدالة ؛ لايؤمل منه الانصاف ، انما يسأله ان لايميته في ميدان مزاحمة الحياة .

بسط المولى جلت حكمته سلطان الانسان على الاكوان فطغى وبغى ونسي ربه وعبد المال والجمال وجعلها منيته ومبتغاه ، كأنه خلق خادما لبطنه وعضوه فقط ، لاشأن له غير الغذاء والتحاك ، وبالنظر الى ان المال هو الوسيلة الموصلة للجمال كاد ينحصر اكبر همّ للانسان في جمع المال ولهذا يكنى عنه بمعبود الامم وبسر الوجود؛ وروى (كريسكوا) المؤرخ الروسي ان كاترينا شكت كسل رعيتها فارشدها شيطانها الى حمل النساء على الخلاعة

ففعلت واحدثت كسوة المراقص ، فهب الشبان للعمل وكسب المال لصرفه على ربات الجمال وفي ظرف خمس سنين تضاعف دخل خزينتها فاتسع لها مجال الاسراف . وهكذا المستبدون لاتهمهم الاخلاق انما يهمهم المال .

★ ★ ★

المال عند الاقتصاديين ماينتفع به الانسان ، وعند الحقوقيين مايجري فيه المنع والبذل ، وعند السياسيين ماتستعاض به القوة ، وعند الاخلاقيين ماتحفظ به الحياة الشريفة . المال يستمد من الفيض الذي اودعه الله تعالى في الطبيعة ونواميسها ؛ ولا يملك اي لا يتخصص بانسان الا بعمل فيه او في مقابله .

والمقصود من المال هو احد اثنين لاثالث لهما وهما : تحصيل لذة او دفع الم ، وفيها تنحصر كل مقاصد الانسان وعليها مبنى احكام الشرائع كلهـــا ؛ والحاكم المعتدل في طيّب المال وخبيثه هو الوجدان الذي خلقه الله صبغة للنفس وعبر عنه في القرآن بالهامها فجورها وتقواها ؛ فالوجدان خيّر بين المال الحلال والمال الحرام .

ثم ان اعمال البشر في تحصيل المال يرجع الى ثلاثة اصول : ١ ـ استحضاره المواد الاصلية ؛ ٢ ـ تهيئته المواد للانتفاع بها ؛ ٣ ـ توزيعها على الناس . وهي الاصول التي تسمى بالزراعة والصناعة والتجارة ، وكل وسيلة خارجة عن هذه الاصول وفروعها الاولية فهي وسائل ظالمة لاخير فيها .

التمول ، اي ادخار المال ، طبيعة في بعض انواع الحيوانات الدنيئة

كالنمل والنحل ولا اثر له في الحيوانات المرتقية غير الانسان . الانسان تطبع على التمول لدواعي الحاجة المحققة او الموهومة ؛ ولا تحقق للحاجة الا عند سكان الاراضي الضيقة الثمرات على اهلها ، او الاراضي المعرضة للقحط في بعض السنين . ويلتحق بالحاجة المحققة حاجة العاجزين جسما عن الارتزاق في البلاد المبتلاة بجور الطبيعة او جور الاستبداد ؛ وربما يلتحق بها ايضاً الضرف على المضطرين وعلى المصارف العمومية في البلاد التي ينقصها الانتظام العام .

والمراد بالانتظام العام معيشة الاشتراك العمومي التي اسسها الانجيل بتخصيصه عشر الاموال للمساكين ؛ ولكن لم يكد يخرج ذلك من القوة الى الفعل . ثم احدث الاسلام سنة الاشتراك على اتم نظام ولكن لم تدم ايضاً اكثر من قرن واحد كان فيه المسلمون لايجدون من يدفعون لهم الصدقات والكفارات . وذلك ان الاسلامية ، كما سبق بيانه ، اسست حكومة ارستقراطية المبنى ، ديموقراطية الادارة ، فوضعت للبشر قانونا مؤسساً على قاعدة : ان المال هو قيمة الاعمال ولا يجتمع في يد الاغنياء الا بانواع من الغلبة والخداع .

فالعدالة المطلقة تقتضي ان يؤخذ قسم من مال الاغنياء ويرد على الفقراء ؛ بحيث يحصل التعديل ولا يموت النشاط للعمل . وهذه القاعدة يتمنى ماهو من نوعها اغلب العالم المتمدن الافرنجي وتسعى وراءها الان جمعيات منهم منتظمة مكونة من ملايين كثيرة . وهذه الجمعيات تقصد حصول التساوي او

التقارب في الحقوق والحالة المعاشية بين البشر ؛ وتسعى ضد الاستبداد المالي فتطلب ان تكون الاراضي والاملاك الثابتة وآلات المعامل الصناعية الكبيرة مشتركة الشيوع بين عامة الامة ، وان الاعمال والثمرات تكون موزعة بوجوه متقاربة بين الجميع ، وان الحكومة تضع قوانين لكافة الشؤون حتى الجزئيات وتقوم بتنفيذها .

وهذه الاصول مع بعض التعديل قررتها الاسلامية دينا وذلك انها قررت :

(اولا) = انواع العشور والزكاة وتقسيمها على انواع المصارف العامة وانواع المحتاجين حتى المدينين . ولا يخفى على المدقق ان جزءا من اربعين من رؤوس الاموال يقارب نصف الارباح المعتدلة باعتبار انها خمسة بالمأة سنويا ؛ وبهذا النظر يكون الاغنياء مضاربون للجماعة مناصفة . وهكذا يلحق فقراء الامة باغنيائها ، ويمنع تراكم الثروات المفرطة المولدة للاستبداد ، المضرة باخلاق الافراد .

(ثانياً) = قررت احكام محكمة تمنع محذور التواكل فى الارتزاق ، وتلزم كل فرد من الامة متى اشتد ساعده او ملك قوت يومه او النصاب على الاكثر ، ان يسعى لرزقه بنفسه او يموت جوعا ، وقد لا يتأتى ان يموت الفرد جوعا اذا لم تكن حكومته مستبدة تضرب على يده وسعيه ونشاطه بمدافع استبدادها ، وقد قيل : يبدأ الانقياد للعمل عند نهاية الخوف من الحكومة ونهاية الاتكال على الغير .

(ثالثاً) = قررت الاسلامية ترك الاراضي الزراعية ملكا لعامة الامة، يستنبتها ويستمتع بخيراتها العاملون فيها بانفسهم فقط ، وليس عليهم غير العشر او الخراج الذي لايجوز ان يتجاوز الخمس لبيت المال .

(رابعا) = جاءت الاسلامية بقواعد شرعية كلية تصلح للاحاطة باحكام كافة الشؤون حتى الجزئية الشخصية ، واناطت تنفيذها بالحكومة ، كما تطالبة الآن اغلب جمعيات الاشتراكيين . على ان هذا النظام الذي جاء به الاسلام، صعب الاجراء جداً ، لانه منوط بسيطرة الكل ورضاء الاكثر وهيهات . . . ولان هناك منافع ادبية يعسر توزيعها ولا تتسامح فيها النفوس ، ولان القانون الكثير الفروع يتعذر حفظه بسيطاً ،ويكون معرضا للتأويل حسب الاغراض ، وللاختلاف في تطبيقة حسب الاهواء ، كما وقع فعلا في المسلمين ، فلم يمكنهم اجراء شريعتهم ببساطة وامانة الا عهدا قليلا ، ثم تشعبت معهم الامور بطبيعة اتساع الملك واختلاف طبائع الامم،وفقدالرجال الذين يمكنهم ان يسوقوا مئات ملايين من اجناس الناس:الابيض والاصفر، والحضري والبدوي، بعصا واحدة قرونا عديدة .

ولا غرو اذا كانت المعيشة الاشتراكية على ابدع مايتصوره العقل ، ولكن مع الاسف لم يبلغ البشر بعد من الترقي مايكفي لتوسيعهم نظام التعاون والتضامن في المعيشه العائلية الى ادارة الامم الكبيرة . وكم جربت الامم ذلك فلم تنجح فيها الا الامم الصغيرة مدة قليلة . والسبب كما تقدم هو مجرد صعوبة التحليل والتركيب بين الصوالح والمصالح الكثيرة المختلفة. والمتأمل

في عدم انتظام حالة العائلات الكبيرة ، يقنع حالا بأن التكافل والتضامن غير ميسورين في الامم الكبيرة ؛ ولهذا يكون خير حل مقدور المسألة الاجتماعية هو مايأتي :

١ - يكون الانسان حراً مستقلا في شؤونه كأنه خلق وحده .

٢ - تكون العائلة مستقلة كأنها امة وحدها .

٣ - تكون القرية او المدينة مستقلة كأنها قارة واحدة لاعلاقة لها بغيرها .

٤ - تكون القبائل في الشعب او الاقاليم في المملكة كانها افلاك كل منها مستقل في ذاته ، لايربطها بمركز نظامها الاجتماعي وهو الجنس او الدين او الملك غير محض التجاذب المانع من الوقوع في نظام آخر لايلائم طبائع حياتها

★ ★ ★

ثم ان التمول لاجل الحاجات السالفة الذكر وبقدرها فقط محمود بثلاثة شروط والا كان حرص التمول من اقبح الخصال :

الشرط الاول : ان يكون احراز المال بوجه مشروع حلال ، اي باحرازه من بذل الطبيعة ، او بالمعاوضة ، او في مقابل عمل اوفي مقابل ضمان على ماتقوم بتفصيلة الشرائع المدنية .

والشرط الثاني : ان لايكون في التمول تضييق على حاجيات الغير كاحتكار الضروريات ، او مزاحمة الصناع والعمال الضعفاء ، او التغلب على المباحات مثل امتلاك الاراضي التي جعلها خالقها ممرحا لكافة مخلوقاته وهي امهم ترضعهم لبن جهازاتها وتغذيهم بثمراتها وتأويهم في حضن اجزائها ؛ فجاء المستبدون الظالمون الاولون ووضعوا اصولا لحمايتها من ابنائها وحالوا بينها . فهذه ارلندا مثلا قد حماها الف مستبد مالي من الانكليز ، ليتمتعوا بثلثي او ثلاثة ارباع ثمرات اتعاب عشرة ملايين من البشر الذين خلقوا من تربة ارلندا . وهذه مصر وغيرها تقرب من ذلك حالا وستفوقها مالا ؛ وكم من البشر في اوروبا المتمدنة وخصوصا في لندرة وباريس لايجد احدهم ارضا ينام عليها متمدداً ، بل ينامون في الطبقة السفلى من البيوت حيث لاينام البقر ، وهم قاعدون صفوفا يعتمدون بصدورهم على حبال من مسد منصوبة افقية يتلوون عليها يمنة ويسرة .

وحكومة الصين المختلة النظام فى نظر المتمدنين لاتجيز قوانينها ان يمتلك الشخص الواحد اكثر من مقدار معين من الارض لايتجاوز العشرين كيلو مترا مربعا اي نحو خمسة افدن مصرية او ثلاثة عشر دونما عثمانيا . وروسيا المستبدة القاسية في عرف اكثر الاوروبيين وضعت اخيراً لولاياتها البولونية والغربية قانونا اشبه بقانون الصين ؛ وزادت عليه انها منعت سماع دعوى دين غير مسجل على فلاح ، ولا تأذن لفلاح ان يستدين اكثر من نحو خمسمأة فرنك . وحكومات الشرق اذا لم تستدرك الامر فتضع قانونا من

قبيل قانون روسيا ، تصبح الاراضي الزراعية بعـــد خمسين عاما اوقرن على الاكثر كايرلاندة الانكليزية المسكينة ، التي وجدت لها فى مدي ثلاثة قرون شخصاً واحداً حاول ان يرحمها فلم يفلح واعني به غلادستون،على ان الشرق ربما لايجد في ثلاثين قرنا من يلتمس له الرحمة .

والشرط الثالث لجواز التمول ، هو : الا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير لان افراط الثروة مهلكة للاخلاق الحميدة في الانسان وهذا معنى الآية: (ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى) ،والشرائع السماوية كلها وكذلك الحكمة الاخلاقية والعمرانية حرمن الربا صيانة لاخلاق المرابين من الفساد،لان الربا هو كسب بدون مقابل مادي ففيه معنى الغصب ، وبدون عمل لان المرابي يكسب وهو نائم ففيه الالفة على البطالة ، ومن دون تعرض لخسائر طبيعية كالتجارة والزراعة والاملاك ففيه النماء المطلق المؤدي لانحصار الثروات . ومن القواعد الاقتصادية المتفق عليها ان ليس من كسب لاعار ولا احتكار فيه اربح من الربا مهما كان معتدلا ، وان بالربا تربو الثروات فيختل التساوي او التقارب بين الناس . وقد نظر الماليون وبعض الاقتصاديين من انصار الاستبداد في امر الربا فقالوا ان المعتدل منه نافع بل لابد منه . اولا:لاجل قيام المعاملات الكبيرة ، وثانيا : لاجل ان النقود الموجودة لاتكفي للتداول فكيف اذا امسك المكتنزون قسما منها ايضا . وثالثاً : لاجل ان كثيرين من المتمولين لايعرفون طرائق الاسترباح او لايقدرون عليها ؛ كما ان كثيراً من العارفين بها لايجدون رؤوس امـوال ولا شركاء عنـان . فهذا النظر

صحيح من وجه انماء ثروات بعض الافراد . اما السياسيون الاشتراكيو المبادىء والاخلاقيون ، فينظرون الى ان ضرر الثروات الافرادية في جمهور الامم اكبر من نفعها . لانها تمكن الاستبداد الداخلي فتجعل الناس صنفين : عبيدا واسياداً ، وتقوى الاستبداد الخارجي فتسهل للامم التي تغنى بغناء افرادها التعدي على حرية واستقلال الامم الضعيفة . وهذه مقاصد فاسدة في نظر الحكمة والعدالة ولذلك يقتضي تحريم الربا تحريما مغلظاً .

★ ★ ★

حرص التمول ،وهو الطمع القبيح، يخف كثيراً عند اهالي الحكومات العادلة المنتظمة مالم يكن فساد الاخلاق متغلباً على الاهالي كما كثر الامم المتمدنة في عهدنا ؛ لان فساد الاخلاق يزيد في الميل الى التمول في نسبة الحاجة الاسرافية ؛ ولكن تحصيل الثروة الطائلة في عهد الحكومة العادلة عسير جداً، وقد لايتأتى الا من طريق المراباة مع الامم المنحطة او التجارة الكبيرة التي فيها نوع احتكار ، او الاستعمار في البلاد البعيدة مع المخاطرات ، على ان هذه الصعوبة تكون مقرونة بلذة عظيمة من نوع لذة من يأكل ماطبخ او يسكن مابنى .

وحرص التمول القبيح يشتد كثيراً في رؤوس الناس في عهد الحكومات المستبدة حيث يسهل فيها تحصيل الثروة بالسرقة من بيت المال ، وبالتعدي على الحقوق العامة ، وبغصب مافي ايدي الضعفاء ، ورأس مال ذلك هو ان يترك

الانسان الدين والوجدان والحياء جانبا وينحط فى اخلاقه الى ملائمة المستبد الاعظم او احد اعوانه وعماله ، ويكفيه وسيلة ان يتصل بباب احـــدهم ويتقرب من اعتابه ويظهر له انه في الاخلاق من امثاله ،على شاكلته،ويبرهن له ذلك باشياء من التملق وشهـادة الزور ، وخدمة الشهوات ، والتجسس ، والدلالة على السلب ونحو ذلك . ثم قد يطلع هذا المنتسب على بعض الخفـايا والاسرار التي يخاف رجال الاستبداد من ظهورها خوفا حقيقياً او وهمياً ، فيكسب المنتسب رسوخ القدم ويصير هو بابا لغيره ، وهكذا يحصل على الثروة الطائلة اذا ساعدته الظروف على الثبات طويلاً . وهذا اعظم ابواب الثروة في الشرق والغرب ،ويليه الاتجار بالدين ثم الملاهي ثم الربا الفاحش وهي بئس المكاسب وبئس ماتؤثر في افساد اخلاق الامم .

وقد ذكر المدققون ان ثروة بعض الافراد في الحكومات العادلة اضر كثيراً منها في الحكومات المستبدة لان الاغنياء في الاولى يصرفون قوتهم المالية في افسـاد اخلاق الناس واخلال المساواة وايجاد الاستبداد ؛ اما الاغنيـاء في الحكومات المستبدة فيصرفون ثروتهم في الابهة والتعاظم ارهـابا للناس وتعويضاً للسفالة الحقيقية المنصبة عليهم بالتغالي الباطل ويسرفون الاموال في الفسق والفجور .

بناء عليه ثروة هؤلاء يتعجلها الزوال حيث يغصبها الاقوى منهم من الاضعف ، وقد يسلبها المستبد الاعظم في لحظة وبكلمة . وتزول ايضا والحمد لله قبل ان يتعلم اصحابها او ورثتهم كيف تحفظ الثروات وكيف تنمو

وكيف يستعبدون بها الناس استعباداً اصولياً مستحكماً ، كما هو الحال في اوروبا المتمدنة المهددة بشروط الفوضويين بسبب اليأس من مقاومة الاستبداد المالي فيها .

ومن طبائع الاستبداد انه لايظهر فيه اثر فقر الامة ظهوراً بيناً الا فجأة قريب قضاء الاستبداد نحبه . واسباب ذلك ان الناس يقتصدون في النسل وتكثر وفياتهم ويكثر تغربهم ، ويبيعون املاكهم من الاجانب فتتقلص الثروة وتكثر النقود بين الايدى . وبئست من ثروة ونقود تشبه نشوة المذبوح .

* * *

ولنرجع الى بحث طبيعة الاستبداد في مطلق المال فأقول : ان الاستبداد يجعل المال في ايدي الناس عرضة لسلب المستبد واعوانه وعماله غصبا ، او بحجة باطلة ؛ وعرضة ايضاً لسلب المعتدين من اللصوص والمحتالين الراتعين في ظل امان الادارة الاستبدادية . وحيث المال لايحصل الا بالمشقة فلاتختار النفوس الاقدام على المتاعب مع عدم الامن على الانتفاع بالثمرة .

حفظ المال في عهد الادارة المستبدة اصعب من كسبه ، لان ظهور اثره على صاحبه مجلبة لانواع البلاء عليه ، ولذلك يضطر الناس زمن الاستبداد لاخفاء نعمة الله والتظاهر بالفقر والفاقة ؛ ولهذا ورد في امثال الاسراء ان حفظ درهم من الذهب يحتاج الى قنطار من العقل ، وان العاقل من يخفي ذهبه وذهابه ومذهبه ، وان اسعد الناس الصعلوك الذي لايعرف الحكام

ولا يعرفونه .

ومن طبائع الاستبداد ان الاغنيـاء اعداؤه فكراً واوتاده عملا ؛ فهم ربائط المستبد يذلهم فيؤنون ويستدرهم فيحنون ، ولهذا يرسخ الذل في الامم التي يكثر اغنياؤها . اما الفقراء فيخافهم المستبد خوف النعجة من الذئاب، ويتحبب اليهم ببعض الاعمال التي ظاهرها الرأفة ، يقصد بذلك ان يغصب ايضاً قلوبهم التي لا يملكون غيرها . والفقراء كذلك يخافونه خوف دناءة ونذالة ، خوف البغـاث من العقاب ، فهم لا يجسرون على الافتكار فضلا عن الانكار ، كأنهم يتوهمون ان داخـــل رؤوسهم جواسيس عليهم . وقد يبلغ فساد الاخلاق في الفقراء ان يسرهم فعلا رضاء المستبد عنهم بأي وجـه كان رضاؤه .

وقد خالف الاخلاقيون المتأخرون اسلافهم في قولهم ليس الفقر بعيب، فقالوا : الفقر ابو المعائب لانه مفتقر للغير والغناء استغناء عن الناس ؛ ثم قالوا : الفقر يذهب بعزة النفس ويفضي الى خلع الحيـاء؛ وقالوا: ان لحسن اللباس والامتعة والتنعم في المعيشة تأثير مهم على نفوس البشر ، خلافا لمن يقول ليس المرء بطيلسانه ؛ وحديث (اخشوشنوا فان النعم لاتدوم) هو لانه يحمل على التعود جسما على المشاق في الحروب والاسفار وعند الحاجة . وقالوا: ان رغد العيش ونعيمه لمن اعظم الحاجات ، به تعلو الهمة ولاجله تقتحم العظائم .

يقال في مدح المال : ان اكبر مايحل المشكلات الزمان والمـال . القوة

كانت للعصبية ثم صارت للعلم ثم صارت للمال . العلم والمال يطيلان عمر الانسان حيث يجعلان شيخوخته كشبابه . لايصان الشرف الا بالدم ولا يتأتى العز الا بالمال . قد مضى مجد الرجال وجاء مجد المال . وورد في الاثر : ان اليد العليا خير من اليد السفلى . وان الغني الشاكر افضل من الفقير الصابر . ولم يكن قديماً اهمية للثروة العمومية ، اما الآن وقد صارت المحاربات محض مغالبات علم ومال ، فاصبح للثروة العمومية اهمية عظمى لاجل حفظ الاستقلال ؛ على ان الامم المأسورة لانصيب لها من الثروة العمومية بل منزلتها في المجتمع الانساني كانعام تتناقلها الايدي ؛ ولا تعارض هذه القاعدة ثروة اليهود لانها ثروة غير مزاحمين عليها ، لانهـا فيما يقوله اعداؤهم فيها : ثروة رأسمالها الناموس ومصرفها الملاهي والمقامرة والربا والغش والمضاربات ؛ ولا يخلو هـذا القول من التحامل عليهم حسدا ممن يقدمون اقـــدامهم ولا ينالون منالهم .

هذا والمال الكثير آفات على الحياة الشريفة ترتعد منهـا فرائص اهل الفضيلة والكمال ، الذين يفضلون الكفاف من الرزق مـــع حفظ الحرية والشرف على امتلاك دواعي الترف والسرف ، وينظرون الى المـال الزائد عن الحاجة الكمالية انه بلاء في بلاء ، اي انه بـــلاء من حيث التعب في تحصيله ، وبلاء من حيث القلق على حفظه ، وبلاء من حيث الافتكار بانمائه ؛ واما المكتفي فيعيش مطمئنا مستريحا امينـا بعض الامن على دينه وشرفه واخلاقه .

قرر الاخلاقيون ان الانسان لايكون حراً تماماما لم تكن له صنعة مستقل فيها ، اي غير مرؤوس لاحد ، لان حريته الشخصية تكون تابعة لارتباطه بالرؤساء ، وعليه تكون اقبح الوظائف هي وظائف الحكومة . وقالوا ان للصنعة تأثير في الاخلاق والاميال ، وهي من اصدق مايستدل به على احوال الافراد والاقوام . فالموظفون في الحكومة مثلا يفقدون الشفقة والعواطف العالية تبعاً لصنعتهم التي من مقتضاها عدم الشعور بتبعة اعمالهم. وقال الحكماء ان العاجز يجمع المال بالتقتير والكريم يجمعه بالكسب ؛ وقالوا ان اقل كسب يرضى به العاقل مايكفي معاشه باقتصاد ، وقالوا خير المال مايكفي صاحبه ذل القلة وطغيان الكثرة . وهذا معنى الحديث (فاز المخفون) وحديث (اسألوا الله الكفاف من الرزق) . ويقال الغنى غنى القلب ، والغني من قلت حاجته ، والغني من استغنى عن الناس . وقال بعض الحكماء كل انسان فقير بالطبع ينقصه مثل مايملك ، فمن يملك عشرة يرى نفسه محتاجا لعشرة اخرى ، ومن يملك الفا يرى نفسه محتاجا لالف اخرى . وهذا معنى الحديث :(لو كان لابن آدم واديا من ذهب لتمنى ان يكون له واديان) .

ولا يقصد الاخلاقيون من التزهيد في المال التثبيط عن كسبه ، انما يقصدون ان لا يتجاوز كسبه الطرائق الطبيعية الشريفة . اما السياسيون فلا يهمهم الا ان تستغني الرعية بأي وسيلة كانت ؛ والغربيون منهم يعينون الامة على الكسب ليشاركونها ، والشرقيون لايفتكرون في غير سلب الموجود ؛ وهذه من جملة الفروق بين الاستبداد الغربي والشرقي التي منها ان الاستبداد

الغربي يكون احكم وارسخ واشد وطأة ولكن مع الاين ، والشرقي يكون مقلقلا سريع الزوال ولكنه مزعجاً . ومنها ان الاستبداد الغربي اذا زال تبدل بحكومة عادلة تقيم ماساعدت الظروف ان تقيم ، اما الشرقي فيزول ويخلفه استبداد شر منه لان من دأب الشرقيين ان لايفتكروا في مستقبل قريب ؛ كأن اكبر همهم منصرف الى مابعد الموت فقط ،او انهم مبتلون بقصر البصر .

وخلاصة القول ان الاستبداد اشد وطأة من الوباء ، اكثر هولا من الحريق ، اعظم تخريباً من السيل ، اذل للنفوس من السؤال . داء اذا نزل بقوم سمعت ارواحهم هاتف السماء ينادي القضاء القضاء والارض تناجي ربها بكشف البلاء . الاستبداد عهد اشقى الناس فيه العقلاء والاغنياء ، واسعدهم بمحياه الجهلاء والفقراء ، بل اسعدهم اولئك الذين يتعجلهم الموت فيحسدهم الاحياء .

الاستبداد والاخلاق

الاستبداد يتصرف في اكثر الاميال الطبيعية والاخـــلاق الحسنة ، فيضعفها او يفسدها او يمحوها فيجعل الانسان يكفر بنعـم مولاه ، لانه لم يملكها حق الملك ليحمده عليها حق الحمد ، ويجعله حاقداً على قومه لانهم عون لبلاء الاستبداد عليه ؛ وفاقداً حب وطنه ، لانه غير آمن على الاستقرار فيه ويود لو انتقـل منه ؛ وضعيـف الحب لعائلته ، لانه ليس مطمئنـاً على دوام علاقته معها ؛ ومختل الثقة في صداقة احبابه ، لانه يعلم منهم انهم مثله لا يملكون التكافؤ ؛ وقد يضطرون لاضرار صديقهم بل وقتله وهم باكون . اسير الاستبداد لا يملك شيئاً ليحرص على حفظه ، لانه لا يملك مالا غير معرض للسلب ولا شرفا غير معرض للاهانة . ولا يملك الجاهل منه آمالا مستقبلة ليتبعهـا ويشقى كما يشقى العاقل في سبيلها .

وهذه الحال تجعل الاسير لا يذوق في الكون لذة نعيم غير بعض الملذات البهيمية . بناء عليه يكون شديد الحرص على حياته الحيوانية وان كانت

تعيسة . وكيف لايحرص عليها وهو لايعرف غيرها . اين هو من الحياة الادبية ، اين هو من الحياة الاجتماعية ؟ اما الاحرار فتكون منزلة حياتهم الحيوانية عندهم بعد مراتب عديدة ،ولا يعرف ذلك الامن كان منهم او كشف الله عن بصيرته .

ومثال الاسراء في حرصهم على حياتهم الشيوخ فانهم عندما تمسي حياتهم كلها اسقاما وآلاما ويقربون من ابواب القبور ، يحرصون على حياتهم اكثر من الشباب في مقتبل العمر ، في مقتبل الملاذ ، في مقتبل الآمال .

الاستبداد يسلب الراحة الفكرية فيضني الاجسام فوق ضناها بالشقاء ، فتمرض العقول ويختل الشعور على درجات متفاوتة في الناس .والعوام الذين هم قليلو المادة في الاصل قد يصل مرضهم العقلي الى درجة قريبة من عدم التميز بين الخير والشر ، في كل ماليس من ضروريات حياتهم الحيوانية . ويصل تسفل ادراكهم الى ان مجرد آثار الابهة والعظمة التي يرونها على المستبد واعوانه تبهر ابصارهم ؛ ومجرد سماع الفاظ التفخيم في وصفه وحكايات قوته وصولته يزيغ افكارهم ، فيرون ويفكرون ان الدواء في الداء، فينصاعون بين يدي الاستبداد انصياع الغنم بين ايدي الذئاب حيث هي تجري على قدميها جاهده الى مقر حتفها .

ولهذا كان الاستبداد يستولي على تلك العقول الضعيفة للعامة فضلا عن الاجسام فيفسدها كما يريد ، ويتغلب على تلك الاذهان الضئيلة فيشوش فيها الحقائق بل البديهيات كما يهوي ، فيكون مثلهم في انقيادهم الاعمى للاستبداد

ومقاومتهم المرشد والارشاد ، مثل تلك الهوام التى تترامى على النار، وكم هي تغالب من يريد حجزها عن الهلاك . ولا غرابة في تأثير ضعف الاجسام الضعف فى العقول ، فان في المرضى وخفة عقولهم ، وذوي العاهات ونقص ادراكهم ،شاهداً بيناً كافياً يقاس عليه نقص عقول الاسراء البؤساء بالنسبة الى الاحرار السعداء ؛ كما يظهر الحال ايضاً باقل فرق بين الفئتين من الفرق البين فى قوة الاجسام وغزارة الدم واستحكام الصحة وجمال الهيئات .

ربما يستريب المطالع اللبيب الذي لم يتعب فكره في درس طبيعة الاستبداد، من ان الاستبداد المشئوم كيف يقوم على قلب الحقائق ،مع انه اذا دقق النظر يتجلى له ان الاستبداد يقلب الحقائق في الاذهان . يرى انه كم مكن بعض القياصرة والملوك الاولين من التلاعب بالاديان تأييداً لاستبدادهم فاتبعهم الناس . ويرى ان الناس وضعوا الحكومات لاجل خدمتهم، والاستبداد قلب الموضوع ،فجعل الرعية خادمة للرعاة فقبلوا وقنعوا . ويرى ان الاستبداد استخدم قوة الشعب ،وهي هي قوة الحكومة، على مصالحهم لا لمصالحهم فيرتضوا ويرضخوا . ويرى انه قد قبل الناس من الاستبداد ماساقهم اليه من اعتقاد ان طالب الحق فاجر ، وتارك حقه مطيع ، والمشتكي المتظلم مفسد ، والنبيه المدقق ملحد ، والخامل المسكين صالح امين . وقد اتبع الناس الاستبداد في تسميته النصح فضولا ، والغيرة عداوة ، والشهامة عتواً، والحمية حماقة ، والرحمة مرضاً ؛ كما جاروه على اعتبار ان النفاق سياسة ، والتحيل كياسة ، والدناءة لطف ، والنذالة دماثة .

ولا غرابة في تحكم الاستبداد على الحقائق في افكار البسطاء ، انمـــا الغريب اغفاله كثيراً من العقلاء ، ومنهم جمهور المؤرخين الذين يسمون الفاتحين الغالبين بالرجال العظام ، وينظرون اليهم نظر الاجلال والاحـترام لمجرد انهم كانوا اكثروا في قتل الانسان ، واسرفوا في تخريب العمران. ومن هذا القبيل في الغرابة اعلاء المؤرخين قدر من جاروا المستبدين، وحازوا القبول والوجاهة عند الظالمين . وكذلك افتخار الاخلاف باسلافهم المجرمين الذين كانوا من هؤلاء الاعوان الاشرار .

وقد يظن بعض الناس ان للاستبداد حسنات مفقودة في الادارة الحرة فيقولون مثلاً : الاستبداد يلين الطباع ويلطفها ، والحق ان ذلك يحصل فيه عن فقد الشهامة لا عن فقد الشراسة . ويقولون الاستبداد يعلم الصغير الجاهل حسن الطاعة والانقياد للكبير الخبير ؛ والحق ان هذا فيه عن خوف وجبانة لا عن اختيار واذعان . ويقولون هو يربي النفوس على الاعتدال والوقوف عند الحدود ، والحق ان ليس هناك غير انكماش وتقهقر . ويقولون الاستبداد يقلل الفسق والفجور ، والحق انه عن فقر وعجز لا عن عفة او دين . ويقولون هو يقلل التعديات والجرائم ، والحق انه يمنع ظهورها ويخفيها فيقل تعديدها لا عددها .

* * *

الاخلاق اثمار بذرها الوراثة ، وتربتها التربية ، وسقياها العلم ، والقائمون

عليها هم رجال الحكومة ؛ بناء عليه تفعل السياسة في اخلاق البشر ماتفعله العناية في انماء الشجر .

نعم الاقوام كالآجام ،ان تركت مهملة تزاحمت اشجارها وافلاذها ،وسقم اكثرها ،وتغلب قويها على ضعيفها فاهلكه ، وهذا مثل القبائل المتوحشة. وان صادفت بستانيا يهمه بقاؤها وزهوها فدبرها حسبما تطلبه طباعها ،قويت واينعت وحسنت ثمارها ، وهذا مثل الحكومة العادلة . واذا بليت ببستاني جدير بأن يسمي حطابا لايعنيه الا عاجل الاكتساب ، افسدها وخربها ، وهذا مثل الحكومة المستبدة . ومتى كان الحطاب غريباً لم يخلق من تراب تلك الديار وليس له فيها فخار ولا يلحقه منها عار ،انما همه الحصول على الفائدة العاجلة ولو باقتلاع الاصول ، فهناك الطامة وهناك البوار .فبناء على هذا المثال يكون فعل الاستبداد في اخلاق الامم فعل ذلك الحطاب الذي لايرجى منه غير الافساد .

لاتكون الاخلاق اخلاقا مالم تكن ملكة مطردة على قانون فطري تقتضيه اولا وظيفة الانسان نحو نفسه ، وثانيا وظيفته نحو عائلته ، وثالثاً وظيفته نحو قومه ، ورابعاً وظيفته نحو الانسانية ، وهذا القانون هو مايسمي عند الناس بالناموس .

ومن اين لاسير الاستبداد ان يكون صاحب ناموس وهو كالحيوان المملوك العنان ،يقاد حيث يراد، ويعيش كالريش يهب حيث يهب الريح ،لانظام ولا ارادة ؛ وماهي الارادة ؟ هي ام الاخلاق ، هي ماقيل فيها تعظيماً لشأنها:

لو جازت عبادة غير الله لاختار العقلاء عبادة الارادة ؛ هي تلك الصفة التي تفصل الحيوان عن النبات في تعريفه بانه متحرك بالارادة . فالاسير اذن دون الحيوان لانه يتحرك بارادة غيره لا بارادة نفسه . ولهذا قال الفقهاء: لا نية للرقيق في كثير من احواله ، انما هو تابع لنية مولاه . وقد يعذر الاسير على فساد اخلاقه ، لان فاقد الخيار غير مؤاخذ عقلا وشرعا .

اسير الاستبداد لانظام في حياته ،فلا نظام في اخلاقه ؛ قد يصبح غنياً فيضحي شجاعا كريما،وقد يمسي فقيراً فيبيت جبانا خسيساً ؛وهكذا كل شؤونه تشبه الفوضى لاترتيب فيها ، فهو يتبعها بلا وجهة . اليس الاسير قد يبغي فيزجر او لايزجر ، ويبغى عليه فينصر او لاينصر ، ويحسن فيكافأ او او يرهق ، ويسيء كثيراً فيعفى وقليلا فيشنق ؛ ويجوع يوما فيضوى،ويخصب يوما فيتخم ، يريد اشياء فيمنع ، ويأبى شيئاً فيرغم ، وهكذا يعيش كما تقتضيه الصدف ان يعيش ؛ ومن كانت هذه حاله كيف يكون له خلاق وان وجد ابتداء يتعذر استمراره عليه . ولهذا لاتجوّز الحكمة الحكم على الاسراء بخير او شر .

اقل مايؤثره الاستبداد في اخلاق الناس ، انه يرغم حتى الاخيار منهم على الفة الرياء والنفاق ولبئس السيئتان؛ وانه يعين الاشرار على اجراء غي نفوسهم آمنين من كل تبعة ولو ادبية ، فلا اعتراض ولا انتقاد ولا افتضاح، لان اكثر اعمال الاشرار تبقى مستورة ، يلقي عليها الاستبداد رداء خوف الناس من تبعة الشهادة على ذى شر وعقبى ذكر الفاجر بما فيه . ولهذا

شاعت بين الاسراء قواعد كثيرة باطلة كقولهم : اذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب ، وقولهم البلاء موكول بالمنطق . وقد تغالى وعاظهم في سد افواههم ، حتى جعلوا لهم امثال هذه الاقوال من الحكم النبوية وكم هجوا لهم الهجو والغيبة بلا قيد ، فهم يقرؤون : « لايحب الله الجهر بالسوء من القول » ويغفلون بقية الآية وهي : « الا من ظلم » .

اقوى ضابط للاخلاق النهي عن المنكر بالنصيحة والتوبيخ ، اي بحرص الافراد على حراسة نظام الاجتماع ، وهذه الوظيفة غير مقدور عليها في عهد الاستبداد لغير ذوي المنعة من الغيورين وقليل ماهم ، وقليلا مايفعلون ، وقليلا مايفيد نهيهم ، لانه لايمكنهم توجيهه لغير المستضعفين الذين لايملكون ضررا ولا نفعا ، بل ولا يملكون من انفسهم شيئاً ؛ ولانه ينحصر موضوع نهيهم فيما لاتخفى قباحته على احد من الرذائل النفسية الشخصية فقط ؛ ومع ذلك فالجسور منهم لايرى بدا من الاستثناء المخل للقواعد العامة كقوله : السرقة قبيحة الا اذا كان استردادا منها والكذب حرام الا للمظلوم . والموظفون في عهد الاستبداد للوعظ والارشاد يكونون مطلقاً ، ولا اقول غالباً ، من المنافقين الذين نالوا الوظيفة بالتملق ، وما ابعد هؤلاء عن التأثير لان النصح الذي لااخلاص فيه هو بذر عقيم لاينبت ، وان نبت كان رياء كأصله ، ثم ان النصح لايفيد شيئاً اذا لم يصادف اذنا تتطلب سماعه ، لان النصيحة وان كانت عن اخلاص فهي لاتتجاوز حكم البذر الحي ، ان القي في ارض صالحة نبت ، وان القي في ارض قاحلة مات .

اما النهي عن المنكرات في الادارة الحرة، فيمكن لكل غيور على نظام قومه ان يقوم به بامان واخلاص ،وان يوجه سهام قوارصه الى الضعفاء والاقوياء سواء ، فلا يخص بها الفقير المجروح الفؤاد ،بل تستهدف ايضاً ذوي الشوكة والعناد . وان يخوض في كل واد حتى في مواضيع تخفيف الظلم ومؤاخذة الحكام ،وهذا هو النصح الانكاري الذي يعدي ويجدي ،والذي اطلق عليه النبي عليه السلام اسم (الدين) تعظيما لشأنه فقال : «الدين النصيحة » .

ولما كان ضبط اخلاق الطبقات العليا من الناس من اهم الامور ،اطلقت الامم الحرة حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات مستثنية القذف فقط ، ورأت ان تحمل مضرة الفوضى في ذلك خير من التحديد ،لانه لامانع للحكام ان يجعلوا الشعرة من التقييد سلسلة من حديد ،يخنقون بها عدوتهم الطبيعية اى الحرية . وقد حمى القرآن قاعدة الاطلاق بقوله الكريم :«ولايضار كاتب ولا شهيد » .

* * *

الخصال تنقسم الى ثلاثة انواع :

الاول : الخصال الحسنة الطبيعية ،كالصدق والامانة والهمة والمدافعة والرحمة ، والقبيحة الطبيعية كالرياء والاعتداء والجبانة والقسوة ، وهذا القسم تضافرت عليه كل الطبائع والشرائع .

والنوع الثاني : الخصال الكمالية التي جاءت بها الشرائع الالهامية كتحسين الايثار والعفو وتقبيح الزنا والطمع ؛ وهذا القسم يوجد فيه مالا تدرك كل العقول حكمته او حكمة تعميمه ، فيمتثله المنتسبون الدين احتراما او خوفا .

والنوع الثالث : الخصال الاعتيادية ، وهي مايكتسبه الانسان بالوراثة او بالتربية او بالالفة ، فيستحسن او يستقبح على حسب امياله مالم يضطر الى التحول عنها .

ثم ان التدقيق يفيد ان الاقسام الثلاثة تشتبك وتشترك ويؤثر بعضها في بعض ، فيصير مجموعها تحت تأثير الالفة المديدة ، بحيث كل خصلة منها ترسخ او تتزلزل ، حسبما يصادفها من استمرار الالفة او انقطاعها ؛ فالقاتل مثلاً لا يستنكر شنيعته في المرة الثانية كما استقبحها من نفسه في الاولى ، وهكذا يخف الجرم فى وهمه ، حتى يصل الى درجة التلذذ بالقتل كأنه حق طبيعي له ، كما هي حالة الجبارين وغالب السياسيين ، الذين لاترتج في افئدتهم عاطفة رحمة عند قتلهم افرادا او امما لغاياتهم السياسية ، اهراقا بالسيف او ازهاقا بالقلم ، ولا فرق بين القتل بقطع الاوداج وبين الاماتة بايراث الشقاء غير التسريع والابطاء .

اسير الاستبداد العريق فيه يرث شر الخصال ، ويتربى على اشرها ، ولا بد ان يصحبه بعضها مدى العمر . بناء عليه ، مابعده عن خصال الكمال ، ويكفيه مفسدة لكل الخصال الحسنة الطبيعية والشرعية والاعتيادية تلبسه بالرياء اضطراراً ، حتى يألفه ويصير ملكة فيه ، فيفقد بسببه ثقة نفسه بنفسه

لانه لايجد خلقاً مستقراً فيه ، فلا يمكنه مثلا ان يجزم بامانته ،او يضمن ثباته على امر من الامور فيعيش سيء الظن في حق ذاته مترددا في اعماله ، لوّاما نفسه على اهماله شؤونه ، شاعرا بفتور همته ونقص مروءته ويبقى طول عمره جاهلا مورد هذا الخلل ، فيتهم الخالق والخالق جل شأنه لم ينقصه شيئاً . ويتهم تارة دينه وتارة تربيته وتارة زمانه وتارة قومه ؛ والحقيقة بعيدة عن كل ذلك وما الحقيقة غير انه خلق حراً فأسر .

اجمع الاخلاقيون على ان المتلبس بشائبة من اصول القبائح الخلقيـــة لايمكنه ان يقطع بسلامة غيره منها ؛ وهذا معنى : « اذا ساءت فعال المرء ساءت ظنونه » .فالمرائي مثلا ليس من شأنه ان يظن البراءة في غـــيره من شائبة الرياء الا اذا بعد تشابه النشأة بينهما بعداً كبيراً ؛ كأن يكون بينهما مغايرة في الجنس او الدين او تفاوت مهم في المنزلة كصعلوك وامير كبير. ومثال ذلك الشرقي الخائن ، يأمن الافرنجي في معاملته ويثق بوزنه وحسابه ولا يأمن ويثق بابن جلدته . وكذلك الافرنجي الخائن قد يأمن الشرقي ولا يأمن مطلقاً ابن جنسه . وهذا الحكم صادق على عكس القضية ايضاً اي ان الامين يظن النـاس امناء خصوصا اشباهه في النشأة ،وهذا معنى (الكريم يُخدع) ، وكم يذهل الامين في نفسه عن اتباع حكمة الحزم في اساءة الظن في مواقعه اللازمة .

اذا علمنا ان من طبيعة الاستبداد الفة الناس بعض الاخلاق الرديئة ، وان منها مايضعف الثقة بالنفس ،علمنا سبب قلة اهل العمل واهل العزائم في

الاسراء ،وعلمنا ايضاً حكمة فقد الاسراء ثقتهم ببعضهم ببعض .فينتج من ذلك ان الاسراء محرومون طبعاً من ثمرة الاشتراك في اعمال الحياة، يعيشون مساكين بائسين متواكلين متخاذلين متقاعسين متفاشلين ، والعاقل الحكيم لايلومهم بل يشفق عليهم ويلتمس لهم مخرجا ، ويتبع اثر احكم الحكماء القائل :« رب ارحم قومي فانهم لايعلمون » ، « اللهم اهد قومي فانهم لايعلمون » .

وهنا استوقف المطالع واستلفته الى التأمل في ماهي ثمرة الاشتراك التي يحرمها الاسراء ؛ فأذكره بان الاشتراك هو اعظم سر في الكائنات ، به قيام كل شيء ماعدا الله وحده ، به قيام الاجرام السماوية ، به قيام كل حياة ، به قيام المواليد ، به قيام الاجناس والانواع ، به قيام الامم والقبائل ، به قيام العائلات ، به تعاون الاعضاء . نعم ، الاشتراك فيه سر تضاعف القوة بنسبة ناموس التربيع ؛ فيه سر الاستمرار على الاعمال التي لاتفي بها اعمار الافراد. نعم ، الاشتراك هو السر كل السر في نجاح الامم المتمدنة ، به اكملوا ناموس حياتهم القومية ، به ضبطوا نظام حكوماتهم ، به قاموا بعظائم الامور ، به نالوا كلما يغبطهم عليه اسراء الاستبداد الذين منهم العارفون بقدر الاشتراك ويتشوقون اليه ، ولكن كل منهم يبطن لغبن شركائه باتكاله عليهم عمـــلا ، واستبداده عليهم رأيا ، حتى صار من امثالهم قولهم : « مامن متفقين الا واحدهما مغلوب للآخر » .

ورب قائل يقول ان سر الاشتراك ليس بالامر الخفي ؛ وقد طالما كتب فيه الكتاب حتى ملته الاسماع ؛ ومع ذلك لم يندفع للقيـام به في الشرق غير

اليابانيين والبوير فما السبب ؟ فاجيبه بان الكتاب كتبوا واكثروا واحسنوا فيما فصلوا وصوروا، ولكن قاتل الله الاستبداد وشؤمه، جعل الكتاب يحصرون اقوالهم في الدعوة الى الاشتراك وما بمعناه من التعاون والاتحاد والتحابب والاتفاق ، ومنعهم من التعرض لذكر اسباب التفرق والانحلال كليـــاً ، أواضطرهم الى الاقتصار على بيان الاسبـاب الاخيرة فقط . فمن قائل مثلا : الشرق مريض وسببه الجهل ، ومن قائل : الجهل بلاء وسببه قلة المدارس ، ومن قائل : قلة المدارس عار وسببه عدم التعاون على انشائها من قبل الافراد او من قبل ذوي الشأن .

وهذا اعمق مايخطه قلم الكاتب الشرقي كانه وصل الى السبب المانع الطبيعي او الاختياري . والحقيقة ان هنـاك سلسلة اسباب اخرى حلقتهـا الاولى الاستبداد .

وكاتب آخر يقول : الشرق مريض وسببه فقد التمسك بالدين ثم يقف مع انه لو تتبع الاسباب ، لبلغ الى الحكم بان التهاون في الدين اولا وآخراً ناشئ من الاستبداد . وآخر يقول : ان السبب فساد الاخلاق ؛ وغيره يرى انه فقد التربية ، وسواه ظن انه الكسل ؛ والحقيقة ان المرجع الاول في الكل هو الاستبداد ، الذي يمنع حتى اولئك الباحثين عن التصريح باسمه المهيب .

★ ★ ★

قد اتفق الحكماء الذين اكرمهم الله تعالى بوظيفة الاخذ بيد الامم في

بحثهم عن المهلكات والمنجيات ، على ان فساد الاخلاق يخرج الامم عن ان تكون قابلة للخطاب ، وان معاناة اصلاح الاخلاق من اصعب الامور واحوجها الى الحكمة البالغة والعزم القوي ؛ وذكروا ان فساد الاخلاق يعم المستبد واعوانه وعماله ، ثم يدخل بالعدوى الى كل البيوت ، لاسيما بيوت الطبقات العليا التي تتمثل بها السفلى . وهكذا يغشو الفساد وتمسي الامة يبكيها المحب ويشمت بها العدو ، وتبيت وداؤها عياء يتعاصى على الدواء .

وقد سلك الانبياء عليهم السلام ، في انقاذ الامم من فساد الاخلاق ، مسلك الابتداء اولا بفك العقول من تعظيم غير الله والاذعان لسواه . وذلك بتقوية حسن الايمان المفطور عليه وجدان كل انسان . ثم جهدوا في تنوير العقول بمبادئ الحكمة ، وتعريف الانسان كيف يملك ارادته ، اي حريته في افكاره ، واختياره في اعماله ، وبذلك هدموا حصون الاستبداد وسدوا منبع الفساد .

ثم بعد اطلاق زمام العقول ، صاروا ينظرون الى الانسان بانه مكلف بقانون الانسانية ومطالب بحسن الاخلاق ، فيعلمونه ذلك بأساليب التعليم المقنع وبث التربية التهذيبية .

والحكماء السياسيون الاقدمون ، اتبعوا الانبياء عليهم السلام في سلوك هذا الطريق وهذا الترتيب ؛ اي بالابتداء من نقطة دينية فطرية تؤدي الى تحرير الضمائر ، ثم باتباع طريق التربية والتهذيب بدون فتور ولا انقطاع .

اما المتأخرون من قادة العقول في الغرب ، فمنهم فئة سلكوا طريقة

الخروج بأممهم من حظيرة الدين وآدابه النفسية ،الى فضاء الاطلاق وتربية الطبيعة ، زاعمين ان الفطرة في الانسان اهدي به سبيلا ، وحاجته الى النظام تغنيه عن اعانة الاديان،التي هي كالمخدرات سموم تعطل الحس بالهموم ، ثم تذهب بالحياة فيكون ضررها اكبر من نفعها .

وقد ساعدهم على سلوك هذا المسلك، انهم وجدوا امهم قدفشا فيها نور العلم ؛ ذلك العلم الذي كان منحصرا في خدمة الدين عند المصريين والآشوريين، ومحتكرا في ابناء الاشراف عند الغرناطيين والرومان ، ومخصصاً في اعداد من الشبان المنتخبين عند الهنديين واليونان ؛ حتى جاء العرب بعد الاسلام واطلقوا حرية العلم ، واباحوا تناوله لكل متعلم ؛ فانتقل الى اوروبا حراً على رغم رجال الدين ، فتنورت به عقول الامم على درجات ، وفي نسبتها ترقت الامم في النعيم ، وانتشرت وتخالطت ، وصار المتأخر منها يغبط المتقدم ويتنغص من حالته، ويتطلب اللحاق ويبحث عن وسائله . فنشأ من ذلك حركة قوية في الافكار ، حركة معرفة الخير والغيرة على نواله ؛ حركة معرفه الشر والانفة من الصبر عليه، حركة السير الى الامام رغم كل معارض. اغتنم زعماء الحرية في الغرب قوة هذه الحركة واضافوا اليها قوات ادبية شتى ، كاستبدالهم ثقالة وقار الدين بزهوة عروس الحرية ، حتى انهم لم يبالوا بتمثيل الحرية بحسناء خليعة تختلب النفوس . وكاستبدالهم رابطة الاشتراك في الطاعة للمستبدين برابطة الاشتراك في الشؤون العمومية ، ذلك الاشتراك الذي يتولد منه حب الوطن . وهكذا جعلوا قوة حركة الافكار تياراً

سلطوه على رؤوس الرؤوس من اهل السياسة والدين. ثم ان هؤلاء الزعماء استباحوا القساوة ايضا، فاخذوا من مهجورات دينهم قاعدة (الغاية تبرر الواسطة) ، كجواز السرقة اذا كانت الغاية منها صرف المال في سبيل الخير ، وقاعدة (تثقيل الذمة ببيح الفعل القبيح) كشهادة الزور على ذمة الكاهن التي يتحمل عنه خطيئتها ، ودفعوا الناس بها الى ارتكاب الجرائم الفظيعة التي تقشعر منها الانسانية ،التي لايستبيحها الحكيم الشرقي لما بين ابناء الغرب وابناء الشرق من التباين في الغرائز والاخلاق .

الغربي : مادي الحياة ، قوي النفس ، شديد المعاملة ، حريص على الاستئثار ، حريص على الانتقام ، كانه لم يبق عنده شيء من المبادىء العالية والعواطف الشريفة التي نقلتها له مسيحية الشرق . فالجرماني مثلا : جاف الطبع ، يرى ان العضو الضعيف من البشر يستحق الموت ، ويرى كل فضيلة في القوة ، وكل القوة في المال ؛ فهو يحب العلم ، ولكن لاجل المال ، ويحب المجد ولكن لاجل المال . وهذا اللاتيني مطبوع على العجب والطيش، يرى العقل في الاطلاق والحياة في خلع الحياء ، والشرف في الترف، والكياسة في الكسب ، والعز في الغلبة،واللذة في المائدة والفراش .

اما اهل الشرق فهم ادبيون،ويغلب عليهم ضعف القلب وسلطان الحب، والاصغاء للوجدان والميل للرحمة ولو في غير موقعها،واللطف ولو مع الخصم ،ويرون العز في الفتوة والمروءة. والغنى في القناعة والفضيلة، والراحه في الانس والسكينة، واللذة في الكرم والتحبب، وهم يغضبون ولكن للدين فقط ، ويغارون ولكن

على العرض فقط .

ليس من شأن الشرقي ان يسير مع الغربي في طريق واحدة ؛ فلا تطاوعه طباعه على استباحة مايستحسنه الغربي ، وان تكلف تقليده في امر فلا يحسن التقليد ، وان احسنه فلا يثبت ، وان ثبت فلا يعرف استثماره ، حتى لو سقطت الثمرة في كفه تمنى لو قفزت الى فمه ! . . . فالشرقي مثلا يهتم في شأن ظالمه الى ان يزول عنه ظلمه ، ثم لا يفكر فيمن يخلفه ولا يراقبه ، فيقع في الظلم ثانية ، فيعيد الكرة ويعود الظلم الى مالا نهاية . وكأولئك الباطنة في الاسلام : فتكوا بمئات امراء على غير طائل ، كانهم لم يسمعوا بالحكمة النبوية : « لايلدغ المرء من جحر مرتين » ، ولا بالحكمة القرآنية : « ان الله يحب المتقين » . اما الغربي اذا اخذ على يد ظالمه فلا يفلته حتى يشلها ، بل حتى يقطعها ويكوي مقطعها .

وهكذا بين الشرقيين والغربيين فروق كثيرة ، قد يفضل في الافراديات الشرقي على الغربي ، وفي الاجتماعيات يفضل الغربي على الشرقي مطلقاً . مثال ذلك : الغربيون يستحلفون اميرهم على الصداقة في خدمته لهم والتزام القانون . والسلطان الشرقي يستحلف الرعية على الانقياد والطاعة . الغربيون يمنون على ملوكهم بما يرتزقون من فضلاتهم ، والامراء الشرقيون يتكرمون على من شاؤا باجراء اموالهم عليهم صدقات . الغربي يعتبر نفسه مالكاً لجزء مشاع من وطنه ، والشرقي يعتبر نفسه واولاده وما في يديه ملكاً لاميره . الغربي له على اميره حقوق وليس عليه حقوق ، والشرقي عليه لاميره حقوق

وليس له حقوق. الغربيون يضعون قانونا لاميرهم يسري عليه ، والشرقيون يسيرون على قانون مشيئه امرائهم . الغربيون قضاؤهم وقدرهم من الله ، والشرقيون قضاؤهم وقدرهم مايصدر من بين شفتي المستعبدين . الشرقي سريع التصديق ، والغربي لاينفي ولا يثبت حتى يرى ويلمس. الشرقي اكثر مايغار على الفروج كان شرفه كله مستودع فيها ، والغربي اكثر مايغار على حريته واستقلاله . الشرقي حريص على الدين والرياء فيه، والغربي حريص على القوة والعز والمزيد فيهما . والخلاصة ان الشرقي ابن الماضي والخيال ، والغربي ابن المستقبل والجد .

الحكماء المتأخرون الغربيون ساعدتهم ظروف الزمان والمكان ، وخصوصية الاحوال ،لاختصار الطريق فسلكوه ؛ واستباحوا ماستباحوا ، حتى انهم استباحوا في التمهيد السياسي تشجيع اعوان المستبد على تشديد وطأة الظلم والاعتساف بقصد تعميم الحقد عليه؛ وبمثل هذه التدابير القاسية نالوا المراد او بعضه من تحرير الافكار وتهذيب الاخلاق وجعل الانسان انساناً.

★ ★ ★

وقد سبق هؤلاء الغلاة فئة اتبعت اثر النبيين ، ولم تحفل بطول الطريق وتعبه ، فنجحت ورسخت؛ واعني بتلك الفئة اولئك الحكماء الذين لم يأتوا بدين جديد ، ولا تمسكوا بمعاداة كل دين كمؤسسي جمهورية الفرنسيس ؛ بل رتقوا فتوق الدهر في دينهم بما نقحوا وهذبوا وسهلوا وقربوا ، حتى

جددوه ، وجعلوه صالحاً لتجديد خليق اخلاق الامة .

وما احوج الشرقيين اجمعين من بوذيين ومسلمين ومسيحيين واسرائليين وغيرهم ، الى حكماء لايبالون بنوغاء العلماء المرائين الاغبياء ، والرؤساء القساة الجهلاء . فيجددون النظر في الدين ، نظر من لايحفل بغير الحق الصريح ، نظر من لايضيع النتائج بتشويش المقدمات ، نظر من يقصد اظهار الحقيقة لااظهار الفصاحة ، نظر من يريد وجه ربه لااستمالة الناس اليه ؛ وبذلك يعيدون النواقص المعطلة في الدين ، ويهذبونه من الزوائد الباطلة مما يطرأ عادة على كل دين يتقادم عهده ، فيحتاج الى مجددين يرجعون به الى اصله المبين البريء من حيث تمليك الارادة ورفع البلادة من كل مايشين ، المخفف شقاء الاستبداد والاستعباد ، المبصر بطرائق التعليم والتعلم الصحيحين ؛ المهيء قيام التربية الحسنة واستقرار الاخلاق المنتظمة مما به يصير الانسان انسانا ، وبه لا بالكفر يعيش الناس اخوانا .

والشرقيون مادامو اعلى حاضر حالهم بعيدين عن الجد والعزم ، مرتاحين للهو والهزل تسكينا لآلام اسارة النفس واخلادا الى الخمول والتسفل ، طلبا لراحة الفكر المضغوط عليه من كل جانب ، يتألمون من تذكيرهم بالحقائق ، ومطالبتهم بالوظائف ، ينتظرون زوال العناد بالتواكل ، او مجرد التمني والدعاء ، او يتربصون صدفة مثل التي نالتها بعض الامم ، فليتوقعوا اذن ان يفقدوا الدين كلياً فيمسوا ، وما مساؤهم ببعيد ، دهريين لايدرون اي الحياتين اشقى ، فلينظروا ماحاق بالآشوريين والفينيقيين وغيرهم من الامم المنقرضة المندمجة

في غيرهـا خدما وخـوَلا .

والامر الغريب ، ان كل الامم المنحطة من جميع الاديان تحصر بلية انحطاطها السياسي في تهاونها بامور دينها ،ولا ترجو تحسين حالتها الاجتماعية الا بالتمسك بعروة الدين تمسكا مكيناً ، ويريدون بالدين العبـادة ، ولنعم الاعتقاد لو كان يفيد شيئاً ، لكنه لايفيد ابداً لانه قول لا يمكن ان يكون وراءه فعل ؛ وذلك ان الدين بذر جيد لاشبهة فيه ، فاذا صادف مغرساً طيباً نبت ونمى ، وان صادف ارضاً قاحلة مات وفات ، او ارضاً مغراقاً هاف ولم يثمر . وما هي ارض الدين ؟ ارض الدين هي تلك الامة التي اعمى الاستبداد بصرها وبصيرتها وافسد اخلاقها ودينها ، حتى صارت لاتعرف للدين معنى غير العبادة والنسك اللذين زيادتهما عن حدهما المشروع اضر على الامة من نقصها كما هو مشاهد في المتنسكين .

نعم ، الدين يفيد الترقي الاجتماعي اذا صادف اخلاقا فطرية لم تفسد ، فينهض بها كما نهضت الاسلامية بالعرب . تلك النهضة التي نتطلبها منذ الف عام عبثاً .

وقد علمنا هذا الدهر الطويل مع الاسف ، ان اكثر الناس لايحفلون بالدين الا اذا وافق اغراضهم ، او لهوا ورياء ؛ وعلمنا ان الناس عبيد منافعهم وعبيد الزمان،وان العقل لايفيد العزم عندهم،انما العزم عندهم يتولد من الضرورة او يحصل بالسائق المجبر ، ولا يستحي الناس من ان يلزموا انفسهم باليمين او النذر . بناء عليه ، ما اجدر بالامم المنحطة ان تلتمس دواءها من طريق

احياء العلم واحياء الهمة مع الاستعانة بالدين والاستفادة منه بمثل : « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ؟ لا ان يتكلوا على ان الصلاة تمنع الناس عنهما بطبعها .

الاستبداد والتربية

خلق الله في الانسان استعداداً للصلاح واستعداداً للفساد ، فأبواه يصلحانه وابواه يفسدانه . اى ان التربية تربو باستعداده جسما ونفسا وعقلا ان خيرا فخير وان شراً فشر . وقد سبق ان الاستبداد المشؤوم يؤثر على الاجسام فيورثها الاسقام ،ويسطوعلى النفوس فيفسد الاخلاق ،ويضغط على القول فيمنع نماءها بالعلم . بناء عليه تكون التربية والاستبداد عاملين متعاكسين في النتائج ، فكل ماتبنيه التربية مع ضعفها يهدمه الاستبداد بقوته ، وهل يتم بناء وراءه هادم .

الانسان لاحدّ لغايتيه رقياً وانحطاطاً . وهذا الانسان الذى حارت العقول فيه ، الذي تحمل امانة تربية النفس وقد ابتهـا العوالم ، فاتم خالقه استعداده ثم اوكله لخيرته ، فهو ان يشأ الكمال يبلغ فيه الى مافوق مرتبة الملائكة ، ان كان هناك ملائكة غير خواطر الخير . وان شاء تلبس بالرذائل حتى يكون احط من الشياطين، ان كان هناك شياطين غير وساوس النفس بالشر . على ان الانسان اقرب للشر منه الخير . وكفي ان الله ماذكر الانسان في القرآن،الا وقرن اسمه بوصف قبيح كظلوم وغرور وكفار

وجبار وجهول واثيم . ماذكر الله تعالى الانسان في القرآن الا وهجاه فقال «قتل الانسان ماأكفره» «ان الانسان لكفور» ـ «ان الانسان لفي خسر» ـ «ان الانسان ليطغي» ـ «خلق الانسان عجولا» ـ «خلق الانسان من عجل» . ماوجد من مخلوقات الله من نازع الله في عظمته ، والمستبدون من الانسان ينازعونه فيها ، والمتناهون في الرذالة قد يقبحون عبثاً لغير حاجة في النفس حتى وقد يتعمدون الاساءة لانفسهم .

الانسان في نشأته كالغصن الرطب فهو مستقيم لدن بطبعه ، ولكنها اهواء التربية تميل به الى يمين الخير او شمال الشر ، فاذا شب يبس وبقي على امياله مادام حيا . بل تبقى روحه الى ابد الآبدين فى نعيم السرور بايفائه حق وظيفة الحياة او في جحيم الندم على تفريطه . وربما كان لاغرابة في تشبيه الانسان بعد الموت بالمرء الفرح الفخور اذا نام ولذت له الاحلام ، او بالمجرم الجاني اذا نام فغشيته قوارص الوجدان بهواجس كلها ملام وآلام .

التربية ملكة تحصل بالتعليم والتمرين والقدوة والاقتباس ، فأهم اصولها وجود المربين واهم فروعها وجود الدين . جعلت الدين فرعا لا اصلا ، لان الدين علم لا يفيد العمل اذا لم يكن مقرونا بالتمرين . وهذا هو سبب اختلاف الاخلاق من علماء الدين عند الاسلام عن امثالهم من البراهمة والنصارى ، وهو سبب اقبال المسلمين في القرن الخامس فمابعده ، على قبول اصول الطرائق التي كانت لبا محضا لما كانت تعليما وتمرينا اي تربية المريدين ، ثم خالطها القشر ، ثم صارت قشرا محضا ، ثم صار اكثرها

لهواً او كفرا .

ملكة التربية بعد حصولها ان كانت شرا تضافرت مع النفس ووليها الشيطان الخناس فرسخت ، وان كانت خيرا تبقى مقلقلة كالسفينة في بحر الاهواء ،لايرسوبها الا فرعها الديني في السر والعلانية ، اوالوازع السياسي عند يقين العقاب .

والاستبداد ريح صرصر فيه اعصار يجعل الانسان كل ساعة في شأن، وهو مفسد للدين في اهم قسميه اي الاخلاق ، واما العبادات منه فلا يمسها لانها تلائمه في الاكثر . ولهذا تبقى الاديان في الامم المأسورة، عبارة عن عبادات مجردة صارت عادات فلا تفيد في تطهير النفوس شيئاً ، ولا تنهى عن فحشاء ولا منكر لفقد الاخلاص فيها تبعاً لفقده في النفوس، التي الفت ان تتلجأ وتتلوى بين يدي سطوة الاستبداد في زوايا الكذب والرياء والخداع والنفاق ، ولهذا لايستغرب في الاسير الاليف تلك الحال، اي الرياء، ان يستعمله ايضا مع ربه ،ومع ابيه وامه ومع قومه وجنسه، حتى ومع نفسه .

التربية تربية الجسم وحده الى سنتين ، وهي وظيفة الام او الحاضنة، ثم تضاف اليها تربية النفس الى السابعة ، وهي وظيفة الابوين والعائلة معاً، ثم تضاف اليها تربية العقل الى البلوغ ، وهي وظيفة المعلمين والمدارس ؛ ثم تأتي تربية القدوة بالاقربين والخلطاء الى الزواج ، وهي وظيفة الصدفة ؛ ثم تأتي تربية المقارنة ، وهي وظيفة الزوجين الى الموت او الفراق .

ولا بد ان تصحب التربية من بعد البلوغ ، تربية الظروف المحيطة ،

وتربية الهيئة الاجتماعية ، وتربية القانون او السير السياسي ، وتربية الانسان نفسه .

★ ★ ★

الحكومات المنتظمة هي تتولى ملاحظة تسهيل تربية الامة من حين تكون في ظهور الآباء ، وذلك بان تسن قوانين النكاح ، ثم تعتني بوجود القابلات والملقحين والاطباء ، ثم تفتح بيوت الايتام المقطاء ، ثم تعد المكاتب والمدارس للتعليم من الابتدائي الجبري الى اعلى المراتب ؛ ثم تسهل الاجتماعات وتمهد المسارح ، وتحمي المنتديات ، وتجمع المكتبات والآثار ، وتقيم النصب المذكرات ، وتضع القوانين المحافظة على الآداب والحقوق ، وتسهر على حفظ العادات القومية ، وانماء الاحساسات المالية ، وتقوي الامال ، وتيسر الاعمال ، وتؤمن العاجزين فعلا عن الكسب من الموت جوعا ، وتدفع سليمي الاجسام الى الكسب ولو في اقصى الارض ، وتحمي الفضل وتقدر الفضيلة. وهكذا تلاحظ كل شؤون المرء ولكن من بعيد ، كي لاتخل بحريته واستقلاله الشخصي ، الا تقرب منه الا اذا جنى جرما لتعاقبه ، اومات لتواريه .

وهكذا الامة تحرص على ان يعيش ابنها راضيا بنصيبه من حياته لايفتكر قط كيف تكون بعده حالة صبية ضعاف يتركهم وراءه ، بل يموت مطمئناً راضياً مرضياً آخر دعائه : فلتحي الامة فلتحي الهمة .

اما المعيشة الفوضى في الادارات المستبدة فهي غنية عن التربية ، لانها

محض نماء يشبه نماء الاشجار الطبيعية في الغابات والاحراش ، يسطو عليها الحَرق والغَرق ، وتحطمها العواصف والايدي القواصف ، ويتصرف في فسائلها وفروعها الفأس الاعمى ، فتعيش ماشاءت رحمة الحطابين ان تعيش ، والخيار للصدفة تعوج او تستقيم ، تثمر او تعقم .

يعيش الانسان في ظل العدالة والحرية نشيطاً على العمل بياض نهاره ، وعلى الفكر سواد ليله ، ان طعم تلذذ ، وان تلهى تروح وتريض ، لانه هكذا رأى ابويه واقرباءه ، وهكذا يرى قومه الذين يعيش بينهم . يراهم رجالا ونساء ، اغنياء وفقراء ، ملوكا وصعاليك ، كلهم دائبين على الاعمال يفتخر منهم كاسب الدينار بكده وجده ، على مالك المليار ارثا عن ابيه وجده . نعم يعيش العامل ناعم البال يسره النجاح ولا تقبضه الخيبة ، انما ينتقل من عمل الى غيره ومن فكر الى آخر ، فيكون متلذذا بآماله ان لم يسارعه السعد في اعماله ، وكيفما كان يبلغ العذر عند نفسه والناس بمجرد ايفائه وظيفة الحياة اي العمل . ويكون فرحا فخورا نجح او لم ينجح ، لانه بريء من عار العجز والبطالة .

اما اسير الاستبداد ، فيعيش خاملا خامدا ضائع القصد ، حائرا لايدري كيف يميت ساعاته وأوقاته ويدرج ايامه واعوامه ، كانه حريص على بلوغ أجله ليستتر تحت التراب . ويخطىء والله من يظن ان اكثر الاسراء لاسيما منهم الفقراء لايشعرون بآلام الاسر ، مستدلاً بأنهم لو كانوا يشعرون لبادروا الى ازالته ؛ والحقيقة في ذلك أنهم يشعرون باكثر الآلام ولكنهم

لايدر كون ماهوسببها ومن اين جاءتهم ، فيرى احدهم نفسه منقبضاً عن العمل ، لانه غير امين على اختصاصه بالثمرة ، وربما ظن السلب حقاً طبيعياً الاقوياء فيتمنى ان لو كان منهم . ثم يعمل تارة ولكن بدون نشاط ولا اتقان فيفشل ضرورة ، ولا يدري ايضاً ماالسبب ، فيغضب على مايسميه سعدا او حظا او طالعاً او قدراً . والمسكين من اين له ان يعرف ان النشاط والاتقان لايتأتيان الا مع لذة انتظار النجاح فى العمل ؛ تلك اللذة التي قدر الحكماء انها اللذة الكبرى ، لاستمرار زمانها من حين العزم الى تمام العمل ، والاسير لا اطمئنان فيه على الاستمرار ، ولا تشجيع له على الصبر والجلد .

الاسير المعذب المنتسب الى دين يسلي نفسه بالسعادة الاخروية ، فيعدها بجنان ذات افنان ونعيم مقيم اعده له الرحمن ، ويبعد عن فكره ان الدنيا عنوان الآخرة ، وانه ربما كان خاسر الصفقتين ، بل ذلك هو الكائن غالباً . ولبسطاء الاسلام مسليات اظنها خاصه بهم يعطفون مصائبهم عليها وهى نحو قولهم : الدنيا سجن المؤمن ، المؤمن مصاب ، اذا احب الله عبداً ابتلاه ، هذا شأن آخر الزمان ، حسب المرء لقيمات يقمن صلبه . ويتناسون حديث « ان الله يكره العبد البطال » والحديث المفيد معنى « اذا قامت الساعة وفي يد احدكم غرسة فليغرسها » ، ويتغافلون عن النص القاطع المؤجل قيام الساعة الى مابعد استكمال الارض زخرفتها وزينتها . واين ذلك بعد ؟

وكل هذه المسليات المثبطات تهون عند ذلك السم القاتل ، الذي يحول الاذهان عن التماس معرفة سبب الشقاء ، فيرفع المسؤولية عن المستبدين

ويلقيها على عاتق القضاء والقدر، بل على عاتق الاسراء المساكين انفسهم. واعنى بهذا السم سوء فهم العوام، وبله الخواص، لما ورد في التوراة من نحو: «اخضعوا للسلطان ولا سلطة الا من الله» و «الحاكم لا يتقلد السيف جزافا، انه مقام للانتقام من اهل الشر»؛ ولما ورد في الرسائل من نحو: «فلتخضع كل نسمة للسلطة المقامة من الله»، وقد صاغ وعاظ المسلمين ومحدثوهم من ذلك قولهم: «السلطان ظل الله في الارض». و «الظالم سيف الله ينتقم به ثم ينتقم منه». و «الملوك ملهمون». هذا وكل ماورد في هذا المعنى ان صح فهو مقيد بالعدالة او محتمل للتأويل بما يعقل، وبما ينطبق على حكم الآية الكريمة التي فيها فصل الخطاب وهي: «ألا لعنة الله على الظالمين». وآية «ولا عدوان الا على الظالمين».

★ ★ ★

التربية علم وعمل. وليس من شأن الامم المملوكة شؤونها، ان يوجد فيها من يعلم التربية ولا من يعلمها. حتى ان الباحث لا يرى عند الاسراء علماً في التربية مدفونا في الكتب فضلا عن الاذهان. اما العمل فكيف يتصور وجوده بلا سبق عزم، وهو بلا سبق يقين، وهو بلا سبق علم. وقد ورد في الاثر «النية سابقة العمل». وورد في الحديث: «انما الاعمال بالنيات». بناء عليه ما ابعد الناس المغصوبة ارادتهم، المغلولة ايديهم، عن توجيه الفكر الى مقصد مفيد كالتربية؛ او توجيه الجسم الى عمل نافع كتمرين الوجه على

الحياء والقلب على الشفقة .

نعم ما ابعد الاسراء عن الاستعداد لقبول التربية ، وهي قصر النظر على المحاسن والعبر ، وقصر السمع على الفوائد والحكم ، وتعويد اللسان على قول الخير ، وتعويد اليد على الاتقان ، وتكبير النفس عن السفاسف ، وتكبير الوجدان عن نصرة الباطل ، ورعاية الترتيب في الشؤون ، و عاية التوفير فى الوقت والمال . والاندفاع بالكلية لحفظ الشرف ، لحفظ الحقوق ، ولحماية الدين ، لحماية الناموس ، ولحب الوطن ، لحب العائلة . ولاعانة العلم ، لاعانة الضعيف ، ولاحتقار الظالمين ، لاحتقار الحياة . الى غير ذلك مما لاينبت الا في ارض العدل ، تحت سماء الحرية ، في رياض التربيتين العائلية والقومية .

الاستبداد يضطر الناس الى استباحة الكذب والتحيل والخداع والنفاق والتذلل . والى مراغمة الحس واماتة النفس ونبذ الجد وترك العمل ، الى آخره . وينتج من ذلك ان الاستبداد المشؤوم ، هو يتولى بطبعه تربية الناس على هذه الخصال الملعونة . بناء عليه يرى الآباء ان تعبهم في تربية الابناء التربية الاولى على غير ذلك لابد ان يذهب عبثاً تحت ارجل تربية الاستبداد ؛ كما ذهبت قبلها تربية آبائهم لهم ، او تربية غيرهم لابنائهم سدى .

ثم ان عبيد السلطة التي لاحدود لها هم غير مالكين انفسهم ؛ ولا هم آمنون على انهم يربون اولادهم لهم . بل هم يربون انعاما للمستبدين ، واعوانا لهم عليهم . وفي الحقيقة ان الاولادفي عهد الاستبداد ، هم سلاسل من حديد

يرتبط بها الآباء على اوتاد الظلم والهوان والخوف والتضييق . فالتوالد من حيث هو زمن الاستبداد حمق ، والاعتنـــاء بالتربية حمق مضاعف ، وقد قال شاعر شاعر :

ان دام هذا ولم تحدث له غيرُ لم يُبكَ ميـت ولم يفرح بمولود

وغالب الاسراء لايدفعهم للزواج قصد التوالد ، انما يدفعهم اليه الجهل المظلم وانهم حتى الاغنياء منهم محرومون من كل الملذات الحقيقية: كلذة العلم وتعليمه ، ولذة المجد والحماية ، ولذة الايثـار والبذل ، ولذة احراز مقام في القلوب ، ولذة نفوذ الرأي الصائب ، ولذة كبر النفس عن السفاسف ، الى غير ذلك من الملذات الروحية .

اما ملذات هؤلاء التعساء فهي مقصورة على لذتين اثنتين ، الاولى منهما لذة الاكل وهي جعلهم بطونهم مقـابر للحيوانات ان تيسرت ، والا فمزابل للنباتات ، او بجعلهم اجسـامهم في الوجود كما قيل انابيب بين المطبخ و (الكنيف) ، او جعلها معامل اعدت لتجهيز الاخبثين . واللذة الثانية هي الرعشة باستفراغ الشهوة ، كأن اجسامـهم خلقت دمامـل جرب على اديم الارض ،يطيب لها الحك ووظيفتها توليد الصديد ودفعه .وهذا الشره البهيمي في البعال هو مايعمي الاسراء ويرميهم بالزواج والتوالد .

العرض زمن الاستبداد كسائر الحقوق غير مصون ، بل هو معرض لهتك الفساق من المستبدين والاشرار من اعوانهم، فانهم كما اخبر القرآن عن الفراعنة،يأسرون الاولاد ويستحيون النساء خصوصاً في الحواضر الصغيرة

والقرى المستضعف اهلها. ومن الامور المشاهدة ان الامم التي تقع تحت اسر امة تغايرها في السيماء ، لايمضي عليها اجيال الا وتغشو فيها سيماء الآسرين : كسواد العيون في الاسبانيول ، وبياض البشرة في الافريقيين . وعدم الاطمئنان على العرض ، يضعف الحب الذي لايتم الا بالاختصاص، ويضعف لصقة الاولاد بازواج امهاتهم فتضعف الغيرة على تحمل مشاق التربية ، تلك الغيرة التي لاجلها شرع الله النكاح وحرم السفاح .

للسعة والفقر ايضا دخل كبير فى تسهيل التربية ، واين الاسراء من السعة . كما ان لانتظام المعيشة ولو مع الفقر علاقة قوية في التربية ؛ ومعيشة الاسراء اغنياء كانوا اومعدمين ، كلها خلل في خلل وضيق في ضيق ، وذلك يجعل الاسير هين النفس ، وهذا اول دركات الانحطـــاط ؛ ويرى ذاته لايستحق المزيد في النعيم مطعما ومشربا وملبسا ومسكنا ، وهذا ثاني الدركات؛ ويرى استعداده قاصرا عن الترقي في العلم ، وهذا ثالثهـا ؛ ويرى حياته على يساطتها لاتقوى الا بمعاونة غيره له ، وهذا رابعها ، وهلم جرا ! .

بنـاء عليه ماابعد الاسراء عن النشاط للتربية ، ثم لماذا يتحملون مشاق التربية وهم ان نوروا اولادهم بالعلم جنوا عليهم بتقوية احساسهم ، فيزيدونهم شقاء ويزودونهم بلاء ، ولهذا لاغرو ان يختار الاسراء الذين فيهم بقية من من الادراك ، ترك اولادهم همملا تجرفهم البلاهة الى حيث تشاء .

واذا افتكرنا كيف ينشأ الاسير في البيت الفقير وكيف يتربى ، نجد انه يلقح به وفي الغالب ابواه متناكدان متشاكسان ، ثم اذا تحرك جنيناً

حرك شراسة امه فشتمته ، او زاد آلام حياتها فضربته ؛ فاذا مانما ضيقت عليه بطنها لالفتها الانحاء خمولا والتصرر صغارا ، والتقلص لضيق فراش الفقر ؛ ومتى ولدته ضغط عليه بالقاط اقتصاداً او جهلا،فاذا تألم وبكى سدت فمه بثديها ، او نفسه فخضا او بدوار السرير ، او سقته مخدرا عجزا عن نفقة الطبيب ، فاذا مافطم ، يأتيه الغذاء الفاسد يضيق معدته ويفسد مزاجه ؛ فان كان قوي البنية طويل العمر وترعرع ، يمنع من رياضة اللعب لضيق البيت ؛ فان سأل واستفهم ماذاوماهذا ليتعلم يزجر ويلكم لضيق خلق ابويه، وان جالسهما ليألف المعاشرة وينتفي عنه التوحش، يبعدانه كي لايقف على اسرارهما فيسترقها منه الجيران الخلطاء، فتنموا الى اعوان الظالمين وما اكثرهم؛ فاذا قويت رجلاه يدفع به الى خارج الباب ، الى مدرسة الالفة على القذارة، وتعلم صيغ الشتائم والسباب ؛ فان عاش ونشأ وضع في مكتب او عند ذي صنعة، فيكون اكبر القصد ربطه عن السراح والمراح . فاذا بلغ الشباب ، ربطه اولياؤه على وتد الزواج كي لايفر من مشاكلتهم في شقاء الحياة، ليجني هو على نسله كما جنى عليه ابواه ؛ ثم هو يتولى التضييق على نفسه باطواق الجهل وقيود الخوف ، ويتولى المستبدون التضييق على عقله ولسانه وعمله واماله .

وهكذا يعيش الاسير من حين يكون نسمة في ضيق وضغط ؛ يهرول مابين عتبة هم ووادي غم ، يودع سقما ويستقبل سقما الى ان يفوز بنعمة الموت مضيعا دياه مع آخرته ، فيموت غير آسف ولا مأسوف عليه .

وما أظلم من يؤاخذ الاسراء على عدم اعتنائهم بلوازم الحياة . فالنظافة مثلا : لماذا يهتم بهـا الاسير ؟ هل لاجل صحته وهو في مرض مستمر ، ام لاجل لذته وهو المتألم كيفما تقلب جسمه او نظره ؟ ام لاجل ذوق من يجالس او يؤاكل ،وهو من عفت نفسه صحبة الحياة .

ولا يظنن المطالع ان حالة اغنياء الاسراء هي اقل شراً من هذا . ،كلا ، بل هم اشقى واقل عافية واقصر عمرا من هذا ؛ اذا نقصتهم بعض المنغصات ، تزيد فيهم مشاق التظاهر بالراحة والرفاه والعزة والمنعة ، تظاهراً ان صح قايله فكثيره الكاذب ، حمل ثقيل على عواتقهم كالسكران يتصاحى فيبتلي بالصداع ، او كالعاهرة البائسة تتضاحك لترضي الزاني .

حياة الاسير تشبه حياة النائم المزعوج بالاحلام ،فهي حياة لاروح فيها، حياة وظيفتها تمثيل مندرسات الجسم فقط ولاعلاقه لها بحفظ المزايا البشرية؛ بناء عليه ،فاقد الحرية لاانانية له لانه ميت بالنسبة لنفسه، حي بالنسبة لغيره، كانه لاشيء في ذاته ، انما هو شيء بالاضافة . ومن كان وجوده في الوجود بهذه الصورة وهي الفناء في المستبدين ، حق له ان لايشعر بوظيفة شخصية فضلا عن وظيفة اجتماعيه . ولولا ان ليس في الكون شيء غير تابع لنظام حتى الجماد ، حتى فلتات الطبيعة والصدف التي هي مسببات لاسباب نادرة ، لحكمنا بان معيشة الاسراء هي محض فوضى ، لاشبه فوضى .

على ان التدقيق العميق ، يفيدنا بان للاسراء قوانين عربية في مقاومة

الفناء يصعب ضبطها وتعريفها ، انما الاسير يرضعها مع لبن امه ويتربى عليها، وقد يبدع فيها بسائق الحاجة ؛ ويكون منهم الحاذق فيها علماً ، الماهر في تطبيقها عملا ، هو الموفق في ميدان حرب الحياة مع الذل كالهنود واليهود. والعاجز عنها ، اما جاهل هذا القانون او العاجز فطرة عن اتباعه كالعرب مثلا، فلا يخرج عن كونه كرة يلعب بها صبيان الاستبداد، تارة يضربون بها الارض او الحيطان، واخرى تتناولها ارجلهم بالصفعان؛ وهذا اذا كان عجز الاسير عن جهل، واما اذا كان عجزه كما يقال عن عرق ها شمي، اي عن شيء من كرامة نفس، او قوة احساس ، او جسارة جنان ، يكون كالحجارة تتكسر ولا تلين .

قوانين حياة الاسير هي مقتضيات الشؤون المحيطة به ، التي تضطره لان يطبق احساساته عليها ويدبر نفسه على موجبها، وذلك نحو مقابلة التجبر عليه بالتذلل والتصاغر، وتعديل الشدة عليه بالتلاين والمطاوعة ، واعطاء المطلوب منه بعد قليل من التمنع ولو ان المطلوب هـــو ابنه لجزرة الجندية او بنته لفراش شيخ شرير ؛ والمطالبة في الحقوق بصفة استعطاف كانه طالب صدقة وكسب المعاش مع شكاية الحاجة، وحفظ المال باخفائه عن الاعين، والتعامي عن زلات المستبدين ،والتصامم عن سماع مايهان به ، والتظاهر بفقد الحس او تعطيلة بالمخدرات القوية كالافيون والحشيش، وتعطيل العقل بالتباله وستر العلم بالتجاهل ، والارتداء بالتدين والرياء ، وتعويد اللســان على الزلاقة في عبائر التصاغر والتملق ؛ وعزو كل خير الى فضل المستبدين حتى اذا كان

الخير طبيعياً نحو مطر السماء، فعزوه الى يمن الحكام او دعاء الكهان . ويسند كل شر ولو من نوع التسلط على الاعراض ،الى الاستحقاق من جانب الله. الى غير ذلك من احكام ذلك القانون ،الذي رؤوس مسائله فقط تمل القارئ فضلاً عن تفصيلاتها .

ان اخوف مايخافه الاسير هو ان يظهر عليه اثر نعمة الله في الجسم او المال ،فتصيبه عين الجواسيس (وهذا اصل عقيدة اصابة العين) ! ،او ان يظهر له شأن في علم او جاه او نعمة مهمة ، فيسعى به حاسدوه الى المستبد (وهذا اصل شر الحسد الذي يتعوذ منه) ! ، وقد يتحيل الاسير على حفظ ماله الذي يمكنه اخفاءه كالزوجة الجميلة ، او الدابة الثمينة ، او الدار الكبيرة ، فيحميها باسناد الشؤم ، (وهذا اصل التشاؤم بالاقدام والنواصي والاعتاب) .

ومن غريب الاحوال ان الاسراء يبغضون المستبد ، ولا يقوون على استعمالهم معه البأس الطبيعي الموجود في الانسان اذا غضب ، فيصرفون بأسهم في وجهة اخرى ظلماً : فيعادون من بينهم فئة مستضعفة ، او الغرباء ، او يظلمون نساءهم ونحو ذلك . ومثلهم في ذلك الكلاب الاهلية، اذا اريد منها الحراسة والشراسة فأصحابها يربطونها نهاراً ويطلقونها ليلا فتصير شرسة عقورة ، وبهذا التعليل تعلل جسارة الاسراء احياناً في محارباتهم ،لا انها جسارة عن شجاعة ؛ واحيانا تكون جسارة الاسراء عن التنامي في الجبانة امام المستبد،الذي يسوقهم الى الموت فيطيعونه اذعانا كما تطيع الغنمة الذئب

فتهرول بين يديه الى حيث يأكلها .

★ ★ ★

وقد اتضح مما تقدم ان التربية غير مقصودة ولا مقدورة في ظـــلال الاستبداد الا ماقد يكون بالتخويف من القوة القاهرة ،وهذاالنوع يستلزم انخلاع القلوب لا تزكية النفوس . وقد أجمع علماء الاجتماع والاخلاق والتربية على ان الاقناع خير من الترغيب فضلا عن الترهيب ، وان التعليم مع الحرية بين المعلم والمتعلم ، افضل من التعليم مع الوقار ، وان التعليم عن رغبة في التكمل ارسخ من العلم الحاصل طمعاً في المكافأة ، او غيرة من الاقران . وعلى هذه القاعدة بنوا قولهم : ان المدارس تقلل الجنايات لا السجون ، وقولهم: ان القصاص والمعاقبة قلما يفيدان في زجر النفس كما قال الحكيم العربي :

لاترجع الانفس عن غيها مالم يكن منها لها زاجر

ومن يتأمل جيداً في قوله تعالى : « ولكم في القصاص حيـاة ياأولي الالباب » ملاحظاً ان معنى القصاص لغة هو التساوي مطلقاً لامقصوراً على المعاقبة بالمثل في الجنايات فقط ، ويدقـــق النظر في القرآن الكريم وسائر الكتب السماوية ، ويتبع مسالك الرسل العظام عليهم الصلاة والسلام ، يرى ان الاعتنـاء في طريق الهداية فيها منصرف الى الاقنـاع ، ثم الى الاطماع عاجلا او آجلا ، ثم الى الترهيب الآجل غالباً ومع ترك ابواب تدلى الى النجاة .

ثم ان التربية التي هي ضالة الامم وفقدها هو المصيبة العظمى ، التي هي المسألة الاجتماعية حيث الانسان يكون انساناً بتربيته ، وكما يكون الآباء يكون الابناء ، وكما تكون الافراد تكون الامة ؛ والتربية المطلوبة هي التربية المرتبة على اعداد العقل للتمييز ، ثم على حسن التفهيم والاقناع ، ثم على تقوية الهمة والعزيمة ، ثم على التمرين والتعويد ، ثم على حسن القدوة والمثال ، ثم على المواظبة والاقناع ، ثم على التوسط والاعتدال ؛ وان تكون تربية العقل مصحوبة بتربية الجسم ، لانهما متصاحبان صحة واعتلالا ، فانه يقتضي تعويد الجسم على النظافة وعلى تحمل المشاق ، والمهارة في الحركات ، والتوقيت في النوم والغذاء والعبادة ، والترتيب في العمل وفي الرياضة والراحة . وان تكون تلكما التربيتين مصحوبتين ايضاً بتربية النفس على معرفة خالقها ومراقبته والخوف منه . فاذا كان لامطمع في التربية العامة على هذه الاصول بمانع طبيعة الاستبداد ، فلا يكون لعقلاء المبتلين به الا ان يسعوا اولا وراء ازالة المانع الضاغط على العقول ، ثم بعد ذلك يعتنوا بالتربية حيث يمكنهم حينئذ ان ينالوها على توالي البطون والله الموفق .

الاستبداد والترقي

الحركة سنّة عاملة في الخليقة دائبة بين شخوص وهبوط . فالترقي هو الحركة الحيوية اي حركة الشخوص ، ويقابله الهبوط وهو الحركة الى الموت او الانحلال او الاستحالة او الانقلاب .

وهذه السنة كما هي عاملة في المادة واعراضها ، عاملة ايضاً في الكيفيات ومركباتها ، والقول الشارح لذلك آية : « ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي » وحديث : « ماتم امر الا وبدا نقصه » وقولهم : « التاريخ يعيد نفسه » . وحكمهم بان الحياة والموت حقان طبيعيان .

وهذه الحركة الجسمية والنفسية والعقلية لاتقتضي السير الى النهاية شخوصاً او هبوطاً ، بل هي اشبه بميزان الحرارة كل ساعة في شأن ، والعبرة في الحكم للوجهة الغالبة ؛ فاذا رأينا في امة آثار حركة الترقي هي الغالبة على افرادها ، حكمنا لها بالحياة . ومتى رأينا عكس ذلك قضينا عليها بالموت .

الامة هي مجموع افراد يجمعها نسب او وطن او لغة او دين ، كما ان البناء مجموع انقاض ، فحسبما تكون الانقاض جنساً وجمالا وقوة يكون

البناء ، فاذا ترقت او انحطت افراد الامـــة ترقت او انحطت هيئتها الاجتماعية ؛ حتى ان حالة الفرد الواحد من الامة يؤثر في مجموع تلك الامة ، كما اذا لو اختلت حجرة من حصن يختل مجموعه وان كان لايشعر بذلك ؛ كما لو وقفت بعوضة على طرف سفينة عظيمة اثقلتها واما لتها حقيقة وان لم يدرك ذلك بالمشاعر . وبعض السياسيين بنى على هذه القاعدة انه يكفي الامة رقيا ان يجتهد كل فرد منها في ترقية نفسه بدون ان يفتكر في ترقي مجموع الامة .

الترقي الحيوي الذي يتدرج فيه الانسان بفطرته وهمته هو اولا :الترقي في الجسم صحة وتلذذا ؛ ثانياً : الـترقي في القوة بالعلم والمال ؛ ثالثاً : الترقي في النفس بالخصال والمفاخر ؛ رابعاً : الترقي بالعـائلة استئناساً وتعاونا ؛ خامساً : الترقي بالعشيرة تناصرا عند الطوارئ ؛ سادساً : الترقي بالانسانية وهذا منتهى الترقي .

وهناك نوع آخر من الترقي يتعلق بالروح وبالكمال ، وهو ان الانسان يحمل نفساً ملهمة بان لها وراء حياتها هذه حياة اخرى تترقى اليهـا على سلم العدل والرحمة والحسنات . فأهل الاديان ماعدا اهل التوراة يؤمنون بالبعث او التناسخ ،فيأتون بالعدل والرحمة رجاء المكافأة او خوف المجازاة ، وهم من قبيل الطبيعيين يعتبرون انهم مديونين للانسانية بحفظها تاريخ الحياة الطبيعية، فيلتزمون خدمتها اهتماما بحياتهم التاريخية بحسن الذكر او قبحه .

وهذه الترقيات على انواعهـا الستة لايزال الانسان يسعى وراءها مالم يعترضه مانع غالب يسلب ارادته . وهذا المانع اما هو القدر المحتوم ، المسمى

عند البعض بالعجز الطبيعي ، اوهو الاستبداد المشؤوم . على ان القدر قد يصدم سير الترقي لمحة ثم يطلقه فيكرّ راقيا . واما الاستبداد فانه يقلب السير من الترقي الى الانحطاط ، من التقدم الى التأخر ، من النماء الى الفناء ، ويلازم الامة ملازمة الغريم الشحيح ، ويفعل فيها دهراً طويلا افعاله التي تقدم وصف بعضها في الابحاث السابقة . افعاله التي تبلغ بالامة حطة العجماوات فلا يهمها غير حفظ حياتها الحيوانية فقط ، بل قد تبيح حياتها هذه الدنيئة ايضاً الاستبداد اباحة ظاهرة او خفية . ولا عار على الانسان ان يختار الموت على الذل ، وهذه سباع الطير والوحوش اذا اسرت كبيرة قد تأبى الغذاء حتى تموت .

وقد يبلغ فعل الاستبداد بالامة ان يحول ميلها الطبيعي من طلب الترقي الى طلب التسفل ، بحيث لو دفعت الى الرفعة لأبت وتألمت كما يتألم الاجهر من النور ، واذا الزمت بالحرية تشقى وربما تفنى كالبهائم الاهلية اذا اطلق سراحها . وعندئذ يصير الاستبداد كالعلق يطيب له المقام على امتصاص دم الامة ، فلا ينفك عنها حتى تموت ويموت هو بموتها .

وتوصف حركة الترقي والانحطاط في الشؤون الحيوية للانسان انها من نوع الحركة الدودية ، التي تحصل بالاندفاع والانقباض . وذلك ان الانسان يولد وهو اعجز حراكا وادراكا من كل حيوان ، ثم يأخذ في السير تدفعه « الرغائب » النفسية والعقلية وتقبضه « الموانع » الطبيعية والمزاحمة . وهذا سر ان الانسان ينتابه الخير والشر . وهو سر ماورد في القرآن الكريم من

ابتلاء الله الناس بالخير وبالشر . وهو معنى ماورد في الاثر من ان الخير مربوط بذيل الشر ، والشر مربوط بذيل الخير . وهو المراد من اقوال الحكماء نحو : على قدر النعمة تكون النقمة ؛ على قدر الهمم تأتي العزائم ؛ بين السعادة والشقاء حرب سجال ؛ العاقل من يستفيد من مصيبته والكيس من يستفيد من مصيبته ومصيبة غيره ؛ والحكيم من يبتهج بالمصائب ليقتطف منها الفوائد ؛ ما كان فى الحياة لذة لو لم يتخللها آلام .

اذا تقرر هذا فليعلم ايضاً ان سبيل الانسان هو الى الرقي ، مادام جناحا الاندفاع والانقباض فيه متوازيين كتوازن الايجابية والسلبية في الكهربائية ؛ وسبيله القهقرى ان غلبته الطبيعة او المزاحمة . ثم ان الاندفاع اذا غلب فيه العقل النفس ، كانت الوجهة الى الحكمة ؛ وان غلبت النفس العقل ، كانت الوجهة الى الزيغ . اما الانقباض فالمعتدل منه هو السائق للعمل ، والقوي منه مهلك مسكن للحركة ، والاستبداد المشؤوم الذي نبحث فيه هو قابض ضاغط مسكن والمبتلون به هم المساكين . نعم : اسراء الاستبداد احق بوصف المساكين من عجزة الفقراء .

ولو ملك الفقهاء حرية النظر لخرجوا من الاختلاف في تعريف المساكين الذين جعل الله لهم نصيباً من الزكاة فقالوا : هم عبيد الاستبداد ، ولجعلوا كفارات فك الرقاب تشمل هذا الرق الاكبر .

اسراء الاستبداد حتى الاغنياء منهم كلهم مساكين لاحراك فيهم ، يعيشون منحطين في الادراك ، منحطين في الاحساس ، منحطين في الاخلاق .

وما اظلم توجيه اللوم عليهم بغير لسان الرأفة والارشاد ؛ وقد ابدع من شبه حالتهم بدود تحت صخرة ؛ فما أليقَ بالائمين ان يكونوا مشفقين يسعون في رفع الصخرة ولو حتا بالاظافر ذرة بعد ذرة .

قد اجمع الحكماء على ان اهم مايجب عمله على الآخذين بيد الامم ،الذين فيهم نسمة مروءة وشرارة حمية ، الذين يعرفون ماهي وظيفتهم بازاء الانسانية الملتمسين لاخوانهم العافية ، ان يسعوا في رفع الضغط عن العقول لينطلق سبيلها في النمو فتمزق غيوم الاوهام التي تمطر المخاوف ، شأن الطبيب في اعتنائه اولا بقوة جسم المريض ؛ وان يكون الارشاد متناسبا مع الغفلة خفة وقوة : كالساهي ينبهه الصوت الخفيف ، والنائم يحتاج الى صوت اقوى ، والغافل يلزمه صياح وزجر . فالاشخاص من هذا النوع الاخير ، يقتضي لايقاظهم الآن بعد ان ناموا اجيالا طويلة ، ان يسقيهم النطاسي البارع مراً من الزواجر والقوارص علّهم يفيقون ، والا فهم لايفيقون حتى يأتي القضاء من السماء : فتبرق السيوف وترعد المدافع وتمطر البنادق ، فحينئذ يصحون ولكن صحوة الموت !

بعض الاجتماعيين في الغرب يرون ان الدين يؤثر على الترقي الافرادى ثم الاجتماعي تأثيراً معطلا كفعل الافيون في الحس ، او حاجباً كالغيم يغشى نور الشمس . وهناك بعض الغلاة يقولون : الدين والعقل ضدان متزاحمان في الرؤوس ، وان اول نقطة من الترقي تبتدئ عند آخر نقطة من الدين ، وان اصدق مايستدل به على مرتبة الرقي والانحطاط في الافراد او في الامم

الغابرة والحاضرة ، هو مقياس الارتباط بالدين قوة وضعفاً .

هذه الآراء كلها صحيحة لامجال للرد عليها ، ولكن بالنظر الى الاديان الخرافية اساساً او التي لم تقف عند حد الحكمة ، كالدين المبني على تكليف العقل بتصور ان الواحد ثلاثة والثلاثة واحد ، لان مجرد الاذعان لما لا يعقل برهان على فساد بعض مراكز العقل . ولهذا اصبح العالم المتمدن يعد الانتساب الى هذه العقيدة من العار لانه شعار الحق .

اما الاديان المبنية على العقل المحض كالاسلام الموصوف بدين الفطرة ، ولا اعني بالاسلام مايدين به اكثر المسلمين الآن ، انما اريد بالاسلام : دين القرآن ، اي الدين الذي يقوى على فهمه من القرآن كل انسان غير مقيد الفكر بتفصح زيد او تحكم عمرو .

ولا شك ان الدين اذا كان مبنيا على العقل ، يكون افضل صارف للفكر عن الوقوع في مصائد المحرفين ، وانفع وازع يضبط النفس من الشطط ، واقوى مؤثر لتهذيب الاخلاق ، واكبر معين على تحمل مشاق الحياة ، واعظم منشط على الاعمال المهمة الخطرة ، واجل مثبت على المبادئ الشريفة ، وفي النتيجة يكون اصح مقياس يستدل به على الاحوال النفسية في الامم والافراد رقياً وانحطاطاً .

هذا القرآن الكريم اذا اخذناه وقرأناه بالتروي في معاني الفاظه العربية واسلوب تركيبه القرشي ، مع تفهم اسباب نزول آياته وما اشارت اليه ، ومع التبصر في مقاصده الدقيقة وتشريعه السامي ، ومع اخذ بعض

التوضيحات من السنة العملية النبوية او الاجماع ان وجدا ،وقلما يوجدان، فحينئذ لانرى فيه من اوله الى آخره غير حكم يتلقاها العقل بالاجلال والاعظام ، الى درجة انقياد العقل طوعا او كرها الايمان اجمالا بان تلك الحكم حكم عزيزة الهية ، وان الذي انزلها الله على قلبه هو افضل من ارسله الله مرشداً لعباده .

وتوضيح ذلك : ان الناظر في القرآن حق النظر يرى انه لايكلف الانسان قط بالاذعان لشيء فوق العقل ، بل يحذره وينهاه من الايمان اتباعا لرأي الغير او تقليداً للآباء . ويراه طافحاً بالتنبيه الى اعمال الانسان فكره ونظره في هذه الكائنات وعظيم انتظامها : ثم الاستدلال بذلك الى ان لهذه الكائنات صانعا ابدعها من العدم ؛ ثم الانتقال الى معرفة الصفات التي يستلزم العقل ان يكون هذا الصانع متصفا بها ، او منزها عنها ؛ ثم يرى القرآن يعلم الانسان بعض اعمال واحكام واوامر ونواهي كلها لاتبلغ المائة عدداً وكلها بسيطة معقولة ؛ الا قليلا من الامور التعبدية التي شرعت لتكون شعاراً يعرف به المسلم اخاه ، او يستطلع من خلال قيامه بها او تهاونه فيها اخلاقه ، فيستدل مثلا بالتكاسل عن الصلاة على فقد النشاط ، وبترك الصوم على عدم الصبر ، وبالسكر على غلبة النفس العقل ونحو ذلك .

وكفى بالاسلامية رقيا في التشريع ،رقيها بالبشر الى منزلة حصرها اسارة الانسان في جهة شريفة واحدة وهي (الله) ؛ وعتقها عقل البشر من توهم وجود قوة ما في غير الله من شأنها ان تأتي للانسان بخير ما ، او تدفع عنه

شراً ما . فالاسلامية تجعل الانسان لايرجو ولايهاب من رسول او نبي او ملك او فلك ، او ولي او جنى او ساحر او كاهن ، او شيطان اوسلطان.

واعظم بهذا التعليم الذي يرمي الانسان به عن عاتقه جبالا من الخوف والاوهام والخيالات . جبالا اعتقلها منذ كان يسرح مع الغيلان ، او ورثها من ابيه ادم الذي طغاه شيطان النفس . اوليس العتيق من الاوهام يصبح صحيح العقل ، قوي الارادة ، ثابت العزيمة ، قائده الحكمة،سائقه الوجدان فيعيش حراً ، فرحاً صبوراً فخوراً ، لايبالي حتى بالموت لعلمه بالسعادة التي يستقبلها ، التي يمثلها له القرآن بالجنان فيها الروح والريحان،والحور والغلمان، فيها كلما تشتهي النفس وتقرّ به العينان .

واظن ان هؤلاء المنكرين فائدة الدين ، ماانكروا ذلك الا من عدم اطلاعهم على دين صحيح مع يأسهم من اصلاح مالديهم ، عجزا عن مقاومة انصار الفساد . واذا نظرنا في ان هؤلاء انفسهم هم في آن واحد يشددون النكير على الدين من جهة قائلين ان ضرره اكبر من نفعه ، ويهيجون من جهة اخرى مؤثرات ادبية وهمية محضاً يرون انه لابد منها في بناء الامم ، وذلك مثل حب الوطن وخيانته ، وحب الانسانية والاساءة اليها، والسمعة الحسنة وعكسها ، والذكر التاريخي بالخير او الشر ونحو ذلك مما هو لاشيء في ذاته،ولا شيء ايضاً بالنسبة الى تأثير طاعة الله والخوف منه،لان (الله) حقيقة لاريب فيها ، بل ولا خلاف الا في الاسماء بين (الله) وبين (مادة) او (طبيعة) . ولولا ان الماديين والطبيعيين يأبون الاسترسال في البحث في

صفات مايسمونه مادة او طبيعة، لالتقوا ولا شك مع الاسلام في نقطة واحدة فارتفع الخلاف العلمي واسلم الكل لله .

★ ★ ★

وعلى ذكر اللوم الارشادي لاح لي ان اصور الرقي والانحطاط في النفس ، وكيف ينبغي للانسان العاقل ان يعاني ايقاظ قومه ، وكيف يرشدهم الى انهم خلقوا لغير ماهم عليه من الصبر على الذل والسفالة، فيذكرهم ويحرك قلوبهم ويناجيهم وينذرهم بنحو الخطابات الآتية :

« ياقوم ، ينازعني والله الشعور ، هل موقفي هذا في جمع حي فاحييه بالسلام ام انا اخاطب اهل القبور فاحييهم بالرحمة ؛ ياهؤلاء ، لستم بأحياء عاملين ، ولا اموات مستريحين ، بل انتم بين بين : في برزخ يسمى التنبت ، ويصح تشبيهه بالنوم . يارباه : اني ارى اشباح اناس يشبهون ذوي الحياة وهم في الحقيقة موتى لايشعرون ، بل هم موتى لانهم لايشعرون » .

« ياقوم ، هداكم الله، الى متى هذا الشقاء المديد والناس في نعيم مقيم، وعز كريم ، افلا تنظرون ؟ وما هذا التأخر وقد سبقتكم الاقوام الوف مراحل، حتى صار مابعد وراءكم وراء ! افلا تتبعون ؟ وما هذا الانخفاض والناس في اوج الرفعة ، افلا تغارون ؟ اناشدكم الله ، هل طابت لكم طول غيبة الصواب عنكم ؟ ام انتم كاهل ذلك الكهف ناموا الف عام ثم قاموا ، واذا بالدنيا غير الدنيا والناس غير الناس فاخذتهم الدهشة والتزموا السكون ؟ » .

«ياقوم، وقاكم الله من الشر ، انتم بعيدون عن مفاخر الابداع وشرف القدوة ، مبتلون بداء التقليد والتبعية في كل فكر وعمل ، وبداء الحرص على كل عتيق كانكم خلقتم للماضي لا للحاضر : تشكون حاضركم وتسخطون عليه، ومن لي ان تدركوا ان حاضركم نتيجة ماضيكم ، ومع ذلك اراكم تقلدون اجدادكم في الوساوس والخرافات والامور السافلات فقط ، ولا تقلدونهم في محامدهم ؛ اين الدين ؟ اين التربية ؟ اين الاحساس ؟ اين الغيرة ؟ اين الجسارة ؟ اين الثبات ؟ اين الرابطة ؟ اين المنعة ؟ اين الشهامة ؟ اين النخوة؟ اين الفضيلة ؟ اين المواساة ؟ هل تسمعون ام انتم صمٌ لاهون ؟ » .

« ياقوم ، عافاكم الله ، الى متى هذا النوم ، والى متى هذا التقلب على فراش البأس ووسادة اليأس ؟ ! انتم مفتحة عيونكم ولكنكم نيام ، لكم ابصار ولكنكم لاتنظرون ، وهكذا لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور . لكم سمع ولسان ولكنكم صم بكم ؛ ولكم شبيه الحس ولكنكم لاتشعرون به ما هي اللذائذ حقاً وما هي الآلام ؛ ولكم رؤوس كبيرة ولكنها مشغولة بمزعجات الاوهام والاحلام ؛ ولكم نفوس حقها ان تكون عزيزة ولكن انتم لاتعرفون لها قدراً ومقاما » .

« ياقوم ، قاتل الله الغباوة ، فانها تملأ القلوب رعباً من لاشي ، وخوفا من كل شيء ، وتفعم الرؤوس تشويشاً وسخافة . أليست هي الغباوة جعلتكم كأنكم قد مسكم الشيطان ، فتخافون من ظلكم وترهبون من قوتكم وتحيشون منكم عليكم جيوشاً ليقتل بعضكم بعضاً . تترامون على الموت خوف الموت ،

وتحبسون طول العمر فكركم في الدماغ ونطقكم في اللسان واحساسكم في الوجدان خوفا من ان يسجنكم الظالمـــون ، وما يسجنون غير ارجلكم اياما . فما بالكم ياأحلاس النساء مع الذل تخافون ان تصيروا جلاس الرجال في السجون ؟ » .

« ياقوم ، اعيذكم بالله من فساد الرأي ،وضياع الحزم،وفقد الثقةبالنفس وترك الارادة للغير . فهل ترون اثراً للرشد فى ان يوكل الانسان عنه وكيلا ويطلق له التصرف في ماله واهله ، والتحكم في حيـاته وشرفـه والتأثير على دينه وفكره ،مع تسليف هذا الوكيل العفو عن كل عبث وخيانة واسراف واتلاف ،ام ترون ان هذا النوع من الجنة به يظلم الانسان نفسه ، هل خلق الله لكم عقلا لتفهموا به كل شيء ، ام لتهمـلوه كأنه لاشيء ؟ ان الله لايظلم الناس شيئاً ولكن الناس انفسهم يظلمون » .

« ياقوم ، شفاكم الله ، قد ينفع اليوم الانذار واللوم، واما غدا اذا حل القضاء ، فلا يبقى لكم غير الندب والبكاء . فالى متى هذا التخادع والتخاذل ، والى متى هذا التواني والتدابر ، والى متى هذا الاهمال ؟ هل طاب لـكم النوم على الوسادة اللينة ، وسادة الخمـــول ، ام طاب لـكم السكون وتودون لو تسكنون القبور ،ام عاهدتم انفـكم ان تصلوا غفلة الحياة بالممات ، فلاتفيقوا من السبات قبل صبـاح يوم النشور ، يوم تعلو السيوف رقابكم وتصمي المدافع آذانكم فتمسون الاذلاء حقاً وحق لـكم ان تذلوا ؟ » .

« ياقوم ، رحمكم الله ، ماهذا الحرص على حياة تعيسة دنيئة لاتملكونها

ساعة . ماهذا الحرص على الراحة الموهومة وحياتكم كلها تعب ونصب؟هل لكم في هذا الصبر فخر أو لكم عليه اجر . كلا والله ساء ماتتوهمون ، ليس لكم الا القهر في الحياة ، وقبيح الذكر بعد الممات ، لانكم ماافدتم الوجود شيئاً ،بل اتلفتم ماورثتم عن السلف وصرتم بئس الواسطة للخلف . الستم ياناس مدينين للاسلاف بكل ماانتم فيه من الترقي عن انسان الغابات ؟ فاذا لم تكونوا اهلا للمزيد فكونوا اهلا للحفظ ، وهذه العجلوات تنقل رقيها لنسلها بامانة » .

« ياقوم حماكم الله قد جاءكم المستمتعون من كل حدب ينسلون ؛ فان وجدوكم ايقاظاً عاملوكم كما يتعامل الجيران ويتجامل الاقران ،وان وجدوكم رقودا لاتشعرون سلبوا اموالكم ، وزاحموكم على ارضكم ، وتحيلوا على تذليلكم ، واوثقوا ربطكم واتخذوكم انعاما ، وعندئذ لو اردتم حراكا لاتقوون ، بل تجدون القيود مشدودة والابواب مسدودة لانجاة ولا مخرج » .

« ياقوم ، هون الله مصابكم . تشكون من الجهل ولا تنفقون على التعليم نصف ماتصرفون على التدخين ؛ تشكون من الحكام ، وهم اليوم منكم ، فلا تسعون في اصلاحهم . تشكون فقد الرابطة ، ولكم روابط من وجوه لاتفكرون فى احكامها . تشكون الفقر ولا سبب له غير الكسل . هل ترجون الصلاح وانتم يخادع بعضكم بعضاً ؟ ولا تخدعون الا انفسكم.ترضون بادنى المعيشة عجزاً تسمونه قناعة . وتهملون شؤونكم تهاونا تسمونه توكلا .

تموهون عن جهلكم الاسباب بقضاء الله وتدفعون عار المسببات بعطفها على القدر ، الا والله ماهذا شأن البشر » .

« ياقوم ، سامحكم الله ، لاتظلموا الاقدار وخافوا غيرة المنعم الجبار . الم يخلقكم اكفاء احرارا طلقاء لايثقلكم غير النور والنسيم، فابيتم الاان تحملوا على عواتقكم ظلم الضعفاء وقهر الاقوياء ! لو شاء كبيركم ان يحمّل صغيركم كرة الارض لحنى له ظهره ، ولو شاء ان يركبه لطأطأله رأسه. ماذا استفدتم من هذا الخضوع والخشوع لغير الله ؟ وماذا ترجون من تقبيل الاذيال والاعتاب وخفض الصوت ونكس الرأس . اليس منشأ هذا الصغار كله هو ضعف ثقتكم بانفسكم ، كانكم عاجزون عن تحصيل ما تقوم به الحياة ، وحسب الحياة لقيمات من نبات تقمن ضلع ابن آدم ، وقد بذلها الخلاق لاضعف الحيوان ؛ هذه الوحوش تجد فرائسها اينما حلت ، وهذه الهوام لاتفقد قوتها ؛ فما بال الرجل منكم يضع نفسه مقام الطفل الذي لا ينال من الكبير مراده الا بالتذلل والبكاء ، او موضع الشيخ الفاني الذي لاينال حاجته الا بالتملق والدعاء ؟ » .

« ياقوم ،رفع الله عنكم المكروه ، ماهذا التفاوت بين افرادكم وقد خلقكم ربكم اكفاء في البنية ، اكفاء في القوة ، اكفاء في الطبيعة ، اكفاء في الحاجات ، لايفضل بعضكم بعضاً الا بالفضيلة ، لاربوبية بينكم ولا عبودية . والله ليس بين صغيركم وكبيركم غير برزخ من الوهم . ولو درى الصغير بوهمه ، العاجز بوهمه ، مافي نفس الكبير المتأله من الخوف منه لزال الاشكال وقضي

الامر الذي فيه تشقون ، ياأعزاء الخلقة جهلاء المقام ، كان الناس في دور الهمجية ، فكان دهاتهم بينهم آلهة وانبياء ، ثم ترقي الناس فهبط هؤلاء لمقام الجبابرة والاولياء ، ثم زاد الرقي فانحط اولئك الى مرتبة الحكام والحكماء ، حتى صار الناس ناساً زال العماء وانكشف الغطاء وبان ان الكل اكفاء . فاناشدكم الله في اي الادوار انتم ؟ الا تفكرون ؟ » .

« ياقوم ، جعلكم الله من المهتدين ، كان اجدادكم لاينحنون الا ركوعا لله ، وانتم تسجدون لتقبيل ارجل المنعمين ولو بلقمة مغموسة بدم الاخوان. واجدادكم ينامون الآن في قبورهم مستوين اعزاء ، وانتم احياء معوجة رقابكم اذلاء . البهائم تود لو تنتصب قاماتها وانتم من كثرة الخضوع كادت تصير ايديكم قوائم . النبات يطلب العلو وانتم تطلبون الانخفاض . لفظتكم الارض لتكونوا على ظهرها وانتم حريصون على ان تنغرسوا في جوفها . فان كانت بطن الارض بغيتكم ، فاصبروا قليلا لتناموا فيها طويلا » .

« ياقوم ، الهمكم الله الرشد ، متى تستقيم قاماتكم وترتفع من الارض الى السماء انظاركم ، وتميل الى التعالي نفوسكم ، فيشعر احدكم بوجوده في الوجود فيعرف معنى الانانية ليستقل بذاته في ذاته ، يملك ارادته واختياره ويثق بنفسه وربه ، لايتكل على احد من خلق الله اتكال الناقص في الخلق على الكامل فيه ، او اتكال الغاصب على مال الغافل ، او الكل على سعي العامل ، بل يرى احدكم نفسه انسانا كريما يعتمد على المبادلة والتعاوض فيسلف ثم يستوفي ، ويستدين على ان يفي ؛ بل ينظر في نفسه انه هو الامة وحده .

وما اجدر باحدكم ان يعمل لدنيـاه بنفسه لنفسه ، فلا يتكل على غيره ، كما يعمل الانسان ليعبد الله بشخصه لاينيب عنه غيره . فاذا فعلتم ذلك اظهر الله بينكم ثمرة التضامن بلا اشتراط ، والتقاضي بلا محاشرة ،فتصيرون بنعمة الله اخوانا » .

« ياقوم ، ابعد الله عنكم المصائب وبصركم بالعواقب . ان كانت المظالم غلت ايديكم ، وضيقت انفاسكم ،حتى صغرت نفوسكم ، وهانت عليكم هذه الحياة، واصبحت لاتساوي عندكم الجدوالجهد وامسيتم لاتبالون اتعيشون ام تموتون ، فهلا تخبروني لماذا تحكمون فيكم الظالمين حتى في الموت ؟ اليس لكم من الخيار ان تموتوا كما تشاؤون ، لا كما يشاء الظالمون ؟ هل سلب الاستبداد ارادتكم حتى في الموت ؟ كلا والله : ان انا احببت الموت اموت كما احب ، لئيماً او كريما ، حتفا او شهيداً ؛ فان كان الموت ولا بد ، فلماذا الجبانة . وان اردت الموت ، فليكن اليوم قبل الغد ، وليكن بيدى لابيد عمرو . اليس

وطعم الموت في امر صغير كطعم الموت في امر عظيم

« ياقوم ، اناشدكم الله الا اقول حقاً اذا قلت انكم لاتحبون الموت ، بل تنفرون منه ولكنكم تجهلون الطريق فتهربون من المـــوت الى الموت ، ولو اهتديتم الى السبيل لعلمتم ان الهرب من الموت موت ، وطلب الموت حياة ، ولعرفتم ان الخوف من التعب تعب ، والاقدام على التعب راحة ؛ ولفطنتم الى ان الحرية هي شجرة الخلد وسقياهـا قطرات من الدم الاحمر المسفوح ،

والاسارة هي شجرة الزقوم ، وسقياها انهر من الدم الابيض اي الدموع؛ ولو كبرت نفوسكم لتفاخرتم بتزيين صدوركم بورد الجروح لابوسامات الظالمين » .

★ ★ ★

« ياقوم ، واعني منكم المسلمين . . . ايها المسلمون : انني نشأت وشبت وانا افكر في شأننا الاجتماعي عسى اهتدي لتشخيص دائنا فكنت اتقصى السبب بعد السبب ، حتى اذا وقفت على ماظننته عاما ، اقول لعل هذا هو جرثومة الداء ، فاتعمق فيه تمحيصاً واحلله تحليلا ، فينكشف التحقيق عن ان ماقام في الفكر هو سبب من جملة الاسباب ،او هو سبب فرعي لا اصلي، فاخيب واعود الى البحث والتنقيب . وطالما امسيت واصبحت اجهد الفكر في الاستقصاء ،وكثيرا ماسعيت وسافرت لاستطلع آراء ذوي الآراء ، عسى اهتدي الى مايشفي صدري من آلام بحث اتعبني به ربي . وآخر مااستقرت عليه سفينة فكري هو :

ان جرثومة دائنا هو خروج ديننا عن كونه دين الفطرة والحكمة ، دين النظام والنشاط ، دين القرآن الصريح البيان ؛ الى صبغة انا جعلناه دين الخيال والخبال ، دين الخلل والتشويش ، دين البدع والتشديد ، دين الاجتهاد. وقد دب فينا هذا المرض منذ الف عام فتمكن فينا وأثر في كل شؤوننا، حتى بلغ فينا استحكام الخلل في الفكر والعمل اننا لانرى في الخالق جل

شأنه نظاما فيما اتصف ، نظاماً فيما قضي، نظاما فيما امر ، ولا نطالب انفسنا فضلا عن آمرنا او مأمورنا بنظام وترتيب واطراد ومثابرة .

وهكذا اصبحنا واعتقادنا مشوش ، وفكرنا مشوش، وسياستنا مشوشة، ومعيشتنا مشوشة . فاين منا والحالة هذه الحياة الفكرية ، الحياة العملية ، الحياة العائلية ، الحياة الاجتماعية ، الحياة السياسية ؟ » .

« ياقوم ، قد ضيع دينكم ودنياكم ساستكم الاولون وعلماؤكم المنافقون ، واني ارشدكم الى عمل افرادي لاحرج فيه علما ولا عملا اليس بين جنبي كل فرد منكم وجدان يميز الخير من الشر والمعروف من المنكر ولو تمييزا اجماليا ؛ اما بلغكم قول معلم الخير نبيكم الكريم عليه افضل الصلاة والتسليم : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر او ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلايستجاب لهم » ، وقوله : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، وان لم يستطع فبلسانه ، وان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان » .

« وانتم تعلمون اجماع أئمة مذاهبكم كلها على ان انكر المنكرات بعد الكفر هو الظلم الذي فشا فيكم ، ثم قتل النفس ، ثم وثم ، . . .وقداوضح العلماء ان تغيير المنكر بالقلب هو ببغض المتلبس به بغضاً في الله . بناء عليه فمن يعامل الظالم او الفاسق غير مضطر ، او يجامله ولو بالسلام ، يكون قد خسر اضعف الايمان ، وما بعد الاضعف الا العدم اى فقد الايمان والعياذ بالله ».

«ولا اظنكم تجهلون ان كلمة الشهادة والصوم والصلاة والحج والزكاة

كلها لاتغني شيئاً مع فقد الايمان ، انما يكون القيام حينئذ بهذه الشعائر، قياما بعادات وتقليدات وهوسات تضيع بها الاموال والاوقات» .

« بناء عليه فالدين يكلفكم ان كنتم مسلمين ، والحكمة تلزمكم ان كنتم عاقلين : ان تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر جدكم ، ولا اقل في هذا الباب من ابطانكم البغضاء للظالمين والفاسقين ، واظنكم اذا تأملتم قليلا ترون هذا الدواء السهل المقدور لكل انسان منكم ، يكفي لانقاذكم مما تشكون . والقيام بهذا الواجب متعين على كل فرد منكم بنفسه ، ولو اهمله كافة المسلمين . ولو ان اجدادكم الاولين قاموا به لما وصلتم الى ماانتم عليه من الهوان . فهذا دينكم ، والدين مايدين به الفرد لا مايدين به الجمع ، والدين يقين وعمل ، لاعلم وحفظ في الاذهان . اليس من قواعد دينكم فرض الكفاية وهوان يعمل المسلم ماعليه غير منتظر غيره ؟»

« فاناشدكم الله يامسلمين : ان لايغركم دين لاتعملون به وان كان خير دين، ولا تغرنكم انفسكم بانكم امة خير او خير امة ، وانتم اتم المتواكلون المقتصرون على شعار : « لاحول ولا قوة الا بالله العلي العظيم » . ونعم الشعار شعار المؤمنين، ولكن اين هم ؟ اني لاارى امامي امة تعرف حقاً معنى «لااله الا الله » ، بل ارى امة خبلتها عبادة الظالمين !» .

* * *

« ياقوم ، واعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين، ادعوكم الى تناسي

الاساءات والاحقاد ، وما جناه الآباء والاجداد ، فقد كفى مافعل ذلك على ايدي المثيرين ، واجلكم من ان لاتهتدوا لوسائل الاتحاد وانتم المتنورون السابقون . فهذه امم اوستريا وامريكا قد هداها العلم لطرائق شتى واصول راسخة الاتحاد الوطني دون الديني ،والوفاق الجنسي دون المذهبي،والارتباط السياسي دون الاداري . فما بالنا نحن لانفتكر في ان نتبع احدى تلك الطرائق او شبهها . فيقول عقلاؤنا لمثيري الشحناء من الاعجام والاجانب : دعونا ياهؤلاء نحن ندبر شأننا ، نتفاهم بالفصحاء ، ونتراحم بالاخاء ، ونتواسى في الضراء ، ونتساوى في السراء . دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الاديان تحكم في الاخرى فقط . دعونا نجتمع على كلمات سواء الا وهي : فلتحي الامة ، فليحي الوطن ، فلنحي طلقاء اعزاء » .

« ادعوكم واخص منكم النجباء للتبصر والتبصير فيما اليه المصير ، اليس مطلق العربي اخف استحقاراً لاخيه من الغربي ؟ هذا الغربي قد اصبح ماديا لادين له غير الكسب ، فما تظاهره مع بعضنا بالاخاء الديني الا مخادعة وكذبا . هؤلاء الفرنسيين يطاردون اهل الدين ، ويعملون على انهم يتناسونه ، بناء عليه لاتكون دعواهم الدين في الشرق ، الا كما يغرد الصياد وراء الاشباك .

لو كان للدين تأثير عند الغربي لما كانت البغضاء بين اللاتين والسكسون، بل بين الطليان والفرنسيين ، ولما كانت بين الالمان والفرنسيين الغربيين . الغربي ارقى من الشرقي علما وثروة ومنعة ؛ فله على الشرقيين اذا واطنهم

السيادة الطبيعية . اما الشرقيون فيما بينهم ، متقاربون لايتغابنون .

الغربي يعرف كيف يسوس ، وكيف يتمتع ، وكيف يأسر ،و كيف يستأثر . فمتى رأي فيكم استعداداً واندفاعا لمجاراته او سبقه ، ضغط على عقولكم لتبقوا وراءه شوطاً كبيراً كما يفعل الروس مع البولونيين واليهود والتاتار . وكذلك شأن كل المستعمرين. الغربي مهما مكث في الشرق لايخرج عن انه تاجر مستمتع ، فيأخذ فسائل الشرق ليغرسها في بلده التي لايفتأ يفتخر برياضها ويحنّ الى ارباضها .

قد مضى على الهولانديين في الهند وجزائرها ، وعلى الروس في قازان ، مثل مالقينا في الاندلس ، ولكن ماخدموا العلم والعمران بعشر ماخدمناهما، ودخل الفرنساويون الجزائر منذ سبعين عاما ، ولم يسمحوا بعدلاهلها بجريدة واحدة تقرأ . نرى الانكليزي في بلادنا يفضل قديد بلاده ، وسمك بحاره ، على طري لحمنا وسمكنا .فهلا والحالة هذه تتبصرون ياأولي الالباب ؟ ».

★ ★ ★

«وانت ايها الشرق الفخيم رعاك الله . ماذا دهاك ؟ ماذا اقعدك عن مسراك ، اليست ارضك تلك الارض ذات الجنان والافنان ، ومنبت العلم والعرفان . وسماؤك تلك السماء مصدر الانوار ، ومهبط الحكمة والاديان . وهواؤك ذاك النسيم العدل ، لاالعواصف والضباب . وماؤك ذاك العذب الغدق ،لاالكدر ولا الاجاج ؟ ».

« رعاك الله ياشرق ، ماذا اصابك فاخل نظامك ، والدهر ذاك الدهر ماغير وضعك ولا بدل شرعه فيك ؟ الم تزل مناطقك هي المعتدلة ، وبنوك هم الفائقون فطرة وعدداً ؟ اليس نظام الله فيك على عهده الاول ، ورابطة الاديان في بنيك محكمة قويمة ، مؤسسة على عبادة الصانع الوازع . اليست معرفة المنعم حقيقة راهنة اشرقت فيك شمسها ، أيدت بها عز النفس ، واحكمت بها حب الوطن وحب الجنس ؟ ».

« رعاك الله ياشرق ، ماذا عراك وسكّن منك الحراك ؟ الم تزل ارضك واسعة خصبة ، ومعادنك وافية غنية ، وحيوانك رابياً متناسلا ، وعمرانك قائماً متواصلا ، وبنوك على ما ربيتهم اقرب للخير من الشر ؟ اليس عندهم الحلم المسمى عند غيرهم ضعفاً في القلب ، وعندهم الحياء المسمى بالجبانة ، وعندهم الكرم المسمى بالاتلاف ، وعندهم القناعة المسماة بالعجز ، وعندهم العفة المسماة بالبلاهة ، وعندهم المجاملة المسماة بالذل ؟ نعم ، ماهم بالسالمين من الظلم ، ولكن فيما بينهم ؛ ولا من الخداع ، ولكن لايفتخرون به ، ولا من الاضرار ، ولكن مع الخوف من الله » .

« رعاك الله ياشرق ، لانرى من غير الدهر فيك مايستوجب هـــذا الشقاء لبنيك ، ويستلزم ذلهم لبني اخيك . فلماذا قد اصبحت اذا انقطع عنك مدد اخيك بمصنوعاته ، يبقى ابناؤك عراة حفاة في ظلام ، بل يمنيهم فقد الحديد بالرجوع الى العصر النحاسي بل الحجري الموصـــوف بعصر التعفين ؟ » .

« رعاك الله ياشرق ، بل رعى الله اخاك الغرب ، العائل بنفسه والعائل فيك ، وقاتل الله الاستبداد ، بل لعن الله الاستبداد ، المانع من الترقي في الحياة ، المنحط بالامم الى اسفل الدركات . الا بعداً للظالمين » .

« رعاك الله ياغرب و حياك وبيّاك ، قد عرفت لاخيك سابق فضله عليك ، فوفيت وكفيت واحسنت الوصاية وهديت ، وقد اشتد ساعد بعض اولاد اخيك فهلا ينتدب بعض شيوخ احرارك لاعانة انجاب اخيك على هدم ذاك السور ، سور الشؤم والشرور ، ليخرجوا باخوانهم الى ارض الحياة ، ارض الانبياء الهداة ، فيشكرون فضلك والدهر مكافأة » .

« ياغرب ، لايحفظ لك الدين غير الشرق ان دامت حياته بحريته ، وفقد الدين يهددك بالخراب القريب . فماذا اعددت للفوضويين اذا صاروا جيشاً جراراً ؟ وماذا اعددت لدبارك الحبلى بالثورة الاجتماعية هل تعد المواد المتفرقعة ، وقد جاوزت انواعها الالف ، ام تعد الغازات الخانقة وقد سهل استحضارها على الصبيان ؟ » .

« ياقوم ، واريد بكم شباب اليوم رجال الغد ، شباب الفكر رجال الجد ، اعيذكم من الخزي والخذلان بتفرقة الاديان ؛ واعيذكم من الجهل ، جهل ان الدينونة لله ، وهو سبحانه وليّ السرائر والضمائر ، ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة . »

« اناشدكم ياناشئة الاوطان ، ان تعذروا هؤلاء الواهنة الخائرة قواهم الا في السنتهم ، المعطل عملهم الا في التثبيط ، الذين اجتمع فيهم داء الاستبداد

والتواكل فجعلاهما آلة تدار ولا تدير . واسألكم عفوهم من العتاب والملام، لانهم مرضى مبتلون ، مثقلون بالقيود ، ملجمون بالحديد ، يقضون حياة خير مافيها انهم آباؤكم » .

« قد علمتم يانجباء من طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد جملا كافية للتأمل والتدبر ، فاعتبروا بنا واسألوا الله العافية :

نحن الفنا الادب مع الكبير ولو داس رقابنا . الفنا الثبات ثبات الاوتاد تحت المطارق . الفنا الانقياد ولو الى المهالك . الفنا ان نعتبر التصاغر ادبا ، والتذلل لطفاً ، والتملق فصاحة ، والمكنة رزانه ، وترك الحقوق سماحة ، وقبول الاهانة تواضعاً ، والرضا بالظلم طاعة ، ودعوى الاستحقاق غروراً ، والبحث عن العموميات فضولا ، ومد النظر الى الغد املا طويلا ، والاقدام تهوراً ، والحمية حماقة ، والشهامة شراسة ، وحرية القول وقاحة ، وحرية الفكر كفراً ، وحب الوطن جنونا .

اما انتم ، حماكم الله من السوء ، فنرجو لكم ان تنشأوا على غير ذلك، ان تنشأوا على التمسك باصول الدين ، دون اوهام المتفننين ، فتعرفوا قدر نفوسكم في هذه الحياة فتكرمونها ، وتعرفوا قدر ارواحكم وانها خالدة تثاب وتجزى ؛ وتتبعوا سنن النبيين فلا تخافون غير الصانع الوازع العظيم . ونرجو لكم ان تبنوا قصور فخاركم على معالي الهمم ومكارم الشيم ، لا على عظام نخرة . وان تعلموا انكم خلقتم احرارا لتموتوا كراما ، فاجهدوا ان تحيوا تلكما اليومين حياة رضية ، يتسنى فيها لكل منكم ان يكون سلطانا

مستقلا في شؤونه ، لايحكمه غير الحق ، ومدينـا وفياً لقومه لايضن عليهم بعين او عون ، وولداً باراً لوطنه ، لايبخل عليه بجزء من فكره ووقته وماله ، ومحباً للانسانيه يعمل على ان خير الناس انفعهم للناس ؛ يعلم ان الحياة هي العمل ، ووباء العمل القنوط ، والسعادة هي الامل ، ووباء الامل التردد ؛ ويفقه ان القضاء والقدر هما عند الله مايعلمه ويمضيه ، وهما عند الناس السعي والعمل ؛ ويوقن ان كل اثر على ظهر الارض هو من عمل اخوانه البشر ، وكل عمل عظيم قد ابتدأ به فرد ثم تعـاوره غيره الى ان كمل ، فلا يتخيل الانسان في نفسه عجزا ، ولا يتوقع الا خيرا ، وخير الخير للانسان ان يعيش حراً مقداما او يموت».

«وكأني بسائلكم يسألني تاريخ التغالب بين الشرق والغرب ، فاجيب بانا كنا ارقى من الغرب علماً فنظـاما فقوة ، فكنا له اسيادا ! ثم جاء حين من الدهر لحق بنا الغرب فصارت مزاحمة الحياة بيننا سجالا : ان فقناه شجاعة فاقنا عدداً ، وان فقناه ثروة فاقنا باجتماع كلمته . ثم جاء الزمن الاخير ترقى فيه الغرب علما فنظاما فقوة . وانضم الى ذلك (اولا) : قوة اجتماعه شعوبا كبيرة . (ثانيا) : قوة البارود حيث ابطل الشجاعة وجعل العبرة للعدد . (ثالثا) : قوة كشفه اسرار الكيمياء والميكانيك . (رابعا) : قوة الفحم الذي اهدته له الطبيعة . (خامسا) : قوة النشاط بكسره قيود الاستبداد . (سادساً) : قوة الامن على عقد الشركات المالية الكبيرة . فاجتمعت هذه القوات فيه وليس عند الشرق مايقابلها غير الافتخار بالاسلاف وذلك حجة

عليه ؛ والغرور بالدين خلافا للدين ؛ فالمسلمون يقابلون تلك القوات بما يقال عند اليأس وهو (حسبنا الله ونعم الوكيل) ، ويخالفون امر القرآن لهم بان يعدوا ما استطاعوا من قوة ، لا ما استطاعوا من صلاة وصوم .

وكأني بسائلكم يقول : هل بعد اجتماع هذه القوات في الغرب واستيلائه على اكثر الشرق من سبيل لنجاة البقية ؟ . فاجيب قاطعاً غير متردد :

ان الامر مقدور وامله ميسور . ورأس الحكمة فيه كسر قيود الاستبداد .

وان يكتب الناشئون على جباههم عشر كلمات وهي :

١ ـ ديني ما اظهر ولا اخفي .
٢ ـ اكون حيث يكون الحق ولا ابالي .
٣ ـ انا حر وسأموت حراً .
٤ ـ انا مستقل لا اتكل على غير نفسي وعقلي .
٥ ـ انا انسان الجد والاستقبال لا انسان الماضي والحكايات .
٦ ـ نفسي ومنفعتي قبل كل شي .
٧ ـ الحياة كلها تعب لذيذ .
٨ ـ الوقت غال عزيز .
٩ ـ الشرف في العلم فقط .
١٠ ـ اخاف الله لا سواه .

« وانت ايها الوطن المحبوب : انت العزيز على النفوس ، المقـــدس في

القلوب ، اليك تحن الاشباح وعليك تئن الارواح . . . ايها الوطن البـاكي ضعافه : عليك تبكي العيون وفيك يحلو المنون . الى متى يعيث خلالك اللئـام الطغام ؟ يظلمون بنيك ويذلون ذويك . يطاردون انجالك الانجاب ويمسكون على المساكين الطرق والابواب ، يخربون العمران ويقفرون الديار ؟ .

ايها الوطن العزيز : هل ضاقت رحابك عن اولادك ، ام ضاقت احضانك عن افلاذك ؟ . . . كلا ، انما فقدت الاباة ، فقدت الحماة ، فقدت الاحرار .
ايها الوطن الملتهب فؤاده : اما رويت من سقيا الدموع والدماء ؟ ولكن دموع بناتك الثاكلات ودماء ابنائك الابرياء ، لا دموع النادمين ولا دماء الظالمين . الا فاشرب هنيئاً ولا تأسف على البله الخاملين ؛ ولا تحزن ، فماهم كرائماً وكراماً ، لسن هن كرائماً باكيات محمسات ، وليسوا هم كراما اعزة شهداء ؛ انما هم ، غفر الله لهم ، من علمت ، قلّ فيهم الحر الغيور ، قل فيهم من يقول انا لا اخاف الظالمين .

ايها الوطن الحنون . كوّن الله عناصر اجسامنا منك . وجعل الامهات حواضن ؛ ورزقنا الغذاء منك ، وجعل المرضعات مجهزات ، نعم ، خلقنـا الله منك ، فحق لك ان تحب اجزاءك وان تحن على افلاذك . كما يحق لك في شرع الطبيعة ان لاتحب الاجنبي الذي يأبى طبعه حبك ، الذي يـؤذيك ولا يواليك ، ويزاحم بنيك عليك ويشاركهم فيك ؛ وينقل الى ارضه ما في جوفك من نفيس العناصر وكنوز المعادن فيفقرك ليغني وطنه ، ولا لوم عليه بل بارك الله فيه ! »

« ياقوم ، جعلكم الله خيرة اليوم وعدة الغد ، هذا خطابي اليكم فيما هو الترقي وما هو الانحطاط ، فان وعيتم ولو شذرات ، فـــيا بشراي والسلام عليكم ، والا فيما ضياع الانفاس ، وعلى الرفاة السلام » .

* * *

الاستبداد الذي يبلغ في الانحطاط بالامة الى غاية ان تموت ويموت هو معها، كثير الشواهد في قديم الزمان وحديثه ؛ اما بلوغ الترقي بالامم الى المرتبة القصوى السامية التي تليق بالانسانية ، فهذا لم يسمح الزمان حتى الآن بأمـة تصلح مثالا له ؛ لانه الى الآن لم توجد امـة حكمت نفسها برأيها العـام حكما لايشوبه نوع من الاستبداد ولو باسم الوقار والاحترام ، او بنوع من الاغفال ولو ببذر الشقاق الديني او الجنسي بين الناس .

فـكأن الحكمة الالهية ، لم تزل ترى البشر غير متأهلين لنوال سعـادة الاخوة العمومية بالتحابب بين الافراد ، والقناعة بالمساواة الحقوقيـة بـين الطبقات . نعم، وجد للترقي القريب من الـكمال بعض امثال قليلة في القرون الغابرة ، كالجمهورية الثانية للرومان ، وكعهد الخلفاء الراشدين، وكالازمنة المتقطعة في عهد بعض الملوك المنظمين لاالفاتحين مثل انو شروان وعبد الملك الاموي ونور الدين الشهيد وبطرس الكبير . وكبعض الجمهوريات الصغيرة والممالك الموفقة لاحكام التقييد الموجودة في هذا الزمان . واني اقتصر على وصف منتهى الترقي الذي وصلت اليه تلك الامم وصفا اجمالياً ،واترك للمطالع

ان يوازن بينها ويقيس عليها درجات سائر الامم .

وربما يستريب في ذلك المطالع المولود في ارض الاستبداد ، الذي لم يدرس احوال الامم في الوجود ، ولا عتب عليه فانه كالمولود اعمى لايدرك للمناظر البهية معنى .

قد بلغ الترقي في الاستقلال الشخصي في ظلال الحكومات العادلة ،لان يعيش الانسان المعيشة التي تشبه في بعض الوجوه ماوعدته الاديان لاهل السعادة في الجنان . حتى ان كل فرد يعيش كأنه خالد بقومه ووطنه ، وكأنه امين على كل مطلب ، فلا هو يكلف الحكومة شططاً ولا هي تهمله استحقاراً :

١ - امين على السلامة في جسمه وحياته بحراسة الحكومة التي لاتغفل عن محافظته بكل قوتها في حضره وسفره بدون ان يشعر بثقل قيامها عليه ، فهي تحيط به احاطة الهواء ، لااحاطة السور يلطمه كيفما التفت او سار .

٢ - امين على الملذات الجسمية والفكرية باعتناء الحكومة في الشؤون العامة، المتعلقة بالترويضات الجسمية والنظرية والعقلية حتى يرى ان الطرقات المسهلة والتزيينات البلدية ، والمتنزهات ، والمنتديات ،والمدارس،والمجامع ونحو ذلك . قد وجدت كلها لاجل ملذاته ، ويعتبر مشاركة الناس له فيها لاجل احسانه ، فهو بهذا النظر والاعتبار لاينقص عن اغنى الناس سعادة .

٣ ـ امين على الحرية ، كانه خلق وحده على سطح هذه الارض، فلا يعارضه معارض فيما يخص شخصه من دين وفكر وعمل وامل .

٤ ـ امين على النفوذ ، كانه سلطان عزيز فلا ممانع له ولا معاكس في تنفيذ مقاصده النافعة في الامة التي هو منها .

٥ ـ امين على المزية ، كانه في امة يساوي جميع افرادها منزلة وشرفا وقوة ، فلا يفضل هو على احد ولا يفضل احد عليه ، الا بمزية سلطان الفضيلة فقط .

٦ ـ امين على العدل ، كانه هو القابض على ميزان الحقوق فلا يخاف تطفيفاً ، وهو المثمن فلا يحذر بخساً ، وهو المطمئن على انه اذا استحق ان يكون ملكا صار ملكا ، واذا جنى جناية نال جزاءه لامحالة .

٧ ـ امين على المال والملك ، كأن ما احرزه بوجهه المشروع قليلا كان او كثيرا ، قد خلقه لله لاجله فلا يخاف عليه ، كما انه تقلع عينه ان نظر الى مال غيره .

٨ ـ امين على الشرف بضمان القانون ، بنصرة الامة ، ببذل الدم ، فلا يرى تحقيراً الا لدى وجدانه ، ولا يعرف طعما لمرارة الذل والهوان .

اما الاسير ، ولا أحزن المطالع بوصف حالته ، فاكتفي بالقول انه لا يملك ولا نفسه ، وغير امين حتى على عظامه في رمسه ، اذا وقع نظره على المستبد او احد من جماعته على كثرتهم يتعوذ بالله ، واذا مر من قرب احدى دوائر

حكومته اسرع وهو يكرر قوله : « حمايتك يارب ان هذه الدار ، بئس الدار ،هي كالمجزرة كل من فيها اما ذابح اومذبوح . انهذه الدار كالكنيف(١) لايدخله الا المضطر » .

* * *

وقد يبلغ الترقي في الاستقلال الشخصي مع التركيب بالعائلة والعشيرة، ان يعيش الانسان معتبراً نفسه من وجه غنياً عن العالمين ، ومن وجه عضوا حقيقياً من جسم حي هو العائلة ثم الامة ، ثم البشر .

ويُنظر الى انقسام البشر الى امم ، ثم الى عائلات ، ثم الى افراد ، هو من قبيل انقسام الممالك الى مدن وهي الى بيوت وهي الى مرافق ؛ وكما انه لابد لكل مرفق من وظيفة معينة يصلح لها والا كان بناؤه عبثاً يستحق الهدم، كذلك افراد الانسان لابد ان يعد كل منهم نفسه لوظيفة في قيام حياة عائلته اولا ، ثم حياة قومه ثانيا .

ولهذا يكون العضو الذي لايصلح لوظيفة ، اولا يقوم بما يصلح له، حقيراً مهانا . وكل من يريد ان يعيش كلاً على غيره ، لا عن عجز طبيعي ، يستحق الموت لاالشفقة ، لانه كالدرن في الجسم او كالزائد من الظفر يستحقان الاخراج والقطع ، ولهذا المعنى حرمت الشرائع السماوية الملاهي

---

(١) كلمة تركية معناها المرحاض .

التي ليس فيها ترويض ، والسكر المعطل عن العمل عقلا وجسما ، والمقامرة والربا لانهما ليسا من نوع العمل والتبادل فيه . وقد فضل الله الكناس على الحجام وصانع الخبز على ناظم الشعر لان صنعتها انفع للجمهور .

وقد بلغ ترقي التركيب في الامم الى درجة ان يصير كل فرد من الامة مالكا لنفسه تماما ، ومملوكا لقومه تماما . فالامة التي يكون كل فرد منها مستعدا لافتدائها بروحه وبماله ، تصير تلك الامة بحجة هذا الاستعداد في الافراد ، غنية عن ارواحهم واموالهم .

★ ★ ★

الترقي في القوة بالعلم والمال يتميز على باقي انواع الترقيات السالفة البيان تميز الرأس على باقي اعضاء الجسم ، فكما ان الرأس باحرازه مركزية العقل ، ومركزية اكثر الحواس ، تميز على باقي الاعضاء واستخدمها في حاجاته ، فكذلك الحكومات المنتظمة يترقي افرادها وجموعها في العلم والثروة ، فيكون لهم سلطان طبيعي على الافراد او الامم التي انحط بها الاستبداد المشؤوم الى حضيض الجهل والفقر .

بقي علينا بحث الترقي في الكمالات بالخصال والاثرة ، وبحث الترقي الذي يتعلق بالروح اي بما وراء هذه الحياة ، ويرقى اليه الانسان على سلم الرحمة والحسنات ، فهذه ابحاث طويلة الذيل ومتابعها حكميات الكتب السماوية ، ومدونات الاخلاق ، وتراجم مشاهير الامم .

واكتفي بالقول في هذا النوع ، انه يبلغ بالانسان مرتبة ان لا يرى

لحياته اهمية الا بعد درجات ، فيهمه اولا : حياة امته ، ثم امتلاك حريته ، ثم امنه على شرفه ، ثم محافظته على عائلته ، ثم وقايته حياته ، ثم ماله ، ثم وثم ؛ وقد تشمل احساساته عالم الانسانية كله ، كأن قومه البشر لاقبيلته ، ووطنه الارض لابلده ، ومسكنه حيث يجد راحته ، لايتقيد بجدران بيت مخصوص يستتر فيه ويفتخر به كما هو شأن الاسراء .

وقد يترفع الانسان عن الامارة لما فيها من معنى الكبر ، وعن التجارة لما فيها من التمويه والتبذل ، فيرى الشرف في المحراث ، ثم المطرقة ، ثم القلم ، ويرى اللذة في التجديد والاختراع ، لافي المحافظة على العتيق ، كأن له وظيفة في ترقي مجموع البشر .

وخلاصة القول ان الامم التي يسعدها جدها لتبديد استبدادها ، تنال من الشرف الحسي والمعنوي مالا يخطر على فكر اسراء الاستبداد . فهذه بلجيكا ابطلت التكاليف الاميرية برمتها ، مكتفية في نفقاتها بنماء فوائد بنك الحكومة . وهذه سويسرة يصادفها كثيراً ان لايوجد في سجونها محبوس واحد . وهذه امريكا اثرت حتى كادت تخرج الفضة من مقام النقد الى مقام المتاع . وهذه اليابان اصبحت تستنزف قناطير الذهب من اوروبا وامريكا ثمن امتيازات اختراعاتها وطبع تراجم مؤلفاتها .

وقد تنال ايضاً تلك الامم حظاً من الملذات الحقيقية ، التي لاتخطر على فكر الاسراء ، كلذة العلم وتعليمه ، ولذة المجد والحماية ، ولذة الاثراء والبذل ، ولذة احراز الاحترام في القلوب ، ولذة نفوذ الرأي الصائب ، ولذة الحب

الطاهر ، الى غير هذه الملذات الروحية . واما الاسراء والجهلاء فملذاتهم مقصورة على مشاركة الوحوش الضارية في المطاعم والمشارب واستفراغ الشهوة، كان اجسامهم ظروف تملأ وتفرغ،او هي دماميل تولد الصديد وتدفعه.

وانفع مابلغه الترقي في البشر ، هو احكامهم اصول الحكومات المنتظمة ببنائهم سدا متينا في وجه الاستبداد، والاستبداد جرثومة كل فساد،وبجعلهم الا" قوة ولا نفوذ فوق قوة الشرع ، والشرع هو حبل الله المتين . وبجعلهم قوة التشريع في يد الامة ، والامة لاتجتمع على ضلال . وبجعلهم المحاكم تحاكم السلطان والصعلوك على السواء ، فتحاكي في عدالتها المحكمة الكبرى الالهية. وبجعلهم العمال لاسبيل لهم على تعدي حدود وظائفهم ، كأنهم ملائكة لا يعصون امراً ؛ وبجعلهم الامة يقظة ساهرة على مراقبة سير حكومتها ، لاتغفل طرفة عين ، كما ان الله عز وجل لايغفل عما يفعل الظالمون .

هذا مبلغ الترقي الذي وصلت اليه الامم منذ عرف التاريخ ، على انه لم يقم دليل الى الآن على ترقي البشر في السعادة الحيوية عما كانوا عليه في العصور الخالية حتى الحجرية ، حتى منذ كانوا عراة يسرحون اسرابا ، والآثار المشهودة لاتدل على اكثر من ترقي العلم والعمران وهما آلتان كما يصلحان للاسعاد . يصلحان للاشقاء ، وترقيها هو من سنة الكون التي ارادها الله تعالى لهذه الارض وبنيها ، ووصف لنا ماسيبلغ اليه ترقي زينتها واقتدار اهلها بقوله عز شأنه : « حتى اذا اخذت الارض زخرفها وازينت وظن اهلها انهم قادرون عليها اتاها امرنا ليلا او نهاراً فجعلناها حصيداً كان لم تغن

بالامس » . وهذا يدل على ان الدنيا وبنيها لم يزالا في مقتبل الترقي، ولا يعارض هذا ان مامضى من عمرهما هو اكثر مما بقي حسبما اخبرت به الكتب السماوية، لان العمر شيء ، والترقي شيء آخر .

الاستبداد والتخلص منه

ليس لنا مدرسة اعظم من التاريخ الطبيعي ، ولا برهان اقوى من الاستقراء ؛ ومن تتبعهما يرى ان الانسان عاش دهرا طويلا في حالة طبيعية تسمى « دور الافتراس » ، فكان يتجول حول المياه اسرابا ، تجمعه حاجة الحضانة صغيراً ، وقصد الاستئناس كبيراً ، ويعتمد في رزقه على النبات الطبيعي وافتراس ضعاف الحيوان في البر والبحر ، وتسوسه الارادة فقط ، ويقوده من بنيته اقوى الى حيث يكثر الرزق .

ثم ترقى الكثير من الانسان الى الحالة البدوية التي تسمى «دور الاقتناء»: فكان عشائر وقبائل ، يعتمد في رزقه على ادخار الفرائس الى حين الحاجة ، فصارت تجمعه حاجة التحفظ على المال والانعام ، وحماية المستودعات والمراعي والمياه من المزاحمين ؛ ثم انتقل ، ولا يقال ترقى ، قسم كبير من الانسان الى المعيشة الحضرية ، فسكن القرى يستنبت الارض الخصبة في معاشه ، فاخصب ولكن في الشقاء ، ولعله استحق ذلك بفعله ، لانه تعدى قانون الخالق ، فانه خلقه حرا جوالا يسير في الارض ينظر آلاء الله فسكن ، وسكن الى الجهل والى الذل ؛ وخلق الله الارض مباحة ، فاستأثر بها ،

فسلط الله عليه من يغصبها منه ويأسره . وهذا القسم يعيش بلا جامعة ، تحكمه اهواء اهل المدن ، وقانونه : ان يكون ظالما او مظلوما .

ثم ترقي قسم من الانسان الى التصرف اما في المادة وهم الصناع ، واما في النظريات وهم اهل المعارف والعلوم . وهؤلاء المتصرفون هم سكان المدن الذين هم وان سجنوا اجسامهم بين الجدران ، لكنهم اطلقوا عقولهم في الاكوان ؛ وهم قد توسعوا في الرزق كما توسعوا في الحاجات ، ولكن اكثرهم لم يهتدوا حتى الآن للطريق المثلى في سياسة الجمعيات الكبيرة . وهذا هو سبب تنوع اشكال الحكومات وعدم استقرار امة على شكل مرضي عام . انما كل الامم في تقلبات سياسية على سبيل التجريب ، وبحسب تغلب احزاب الاجتهاد او رجال الاستبداد .

وتقرير شكل الحكومة هو اعظم واقدم مشكلة في البشر ، وهو المعترك الاكبر لافكار الباحثين ، والميدان الذي قد في البشر من لايجول فيه على فيل من الفكر ، او على جمل من الجهل ، او على فرس من الفراسة ، او على حمار من الحمق ، حتى جاء الزمن الاخير فجال فيه انسان الغرب جولة المغوار ، الممتطي في التدقيق مراكب البخار . فقرر بعض قواعد اساسية في هذا الباب تضافر عليها العقل والتجريب ، وحصحص فيها الحق اليقين ، فصارت تعد من المقررات الاجماعية عند الامم المترقية ؛ ولا تعارض ذلك كون هذه الامم لم تزل ايضاً منقسمة الى احزاب سياسية يختلفون شيعاً ، لان اختلافهم هو في وجوه تطبيق تلك القواعد وفروعها على احوالهم الخصوصية .

وهذه القواعد التي قد صارت قضايا بديهية في الغرب ، لم تزل مجهولة ، او غريبة ،او منفورا منهافي الشرق، لانها عند الاكثرين منهملم تطرق سمعهم، وعند البعض لم تنل التفاتهم وتدقيقهم ، وعند آخرين لم تحز قبولا،لانهم ذوو غرض ، او مسرونة قلوبهم ، او في قلوبهم مرض .

واني اطرح لتدقيق المطالعين رؤوس مسائل بعض المباحث التي تتعلق بها الحياة السياسية وقبل ذلك اذكرهم بانه قد سبق فى تعريف الاستبداد بانه : « هو الحكومة التي لايوجد بينها وبين الامة رابطة معينةمعلومةمصونة بقانون نافذ الحكم » . كما استلفت نظرهم الى انه لايوثق بوعدمن يتولى السلطة ايا كان ، ولا بعهده ويمينه على مراعاة الدين ،والتقوى ،والحق ،والشرف، والعدالة ، ومقتضيات المصلحه العامة ؛ وامثال ذلك من القضايا الكلية المبهمة التي تدور على لسان كل بر وفاجر . وما هي في الحقيقة الا كلام مبهم فارغ ، لان المجرم لايعدم تأويلا ، ولان من طبيعة القوة الاعتساف ، ولان القوة لا تقابل الا بالقوة .

ثم فلنرجع للمباحث التي اريد طرحها لتدقيق المطالعين وهي :

١ ـ مبحث ماهى الامة اي الشعب :

هل هي ركام مخلوقات نامية ، او جمعية عبيد لمالك متغلب وظيفتهم الطاعة والانقياد ولو كرها ؛ ام هي جمع بينهم روابط دين او جنس او لغة ووطن، وحقوق مشتركة ، وجامعة سياسية اختيارية ، لكل فرد حق اشهار رأيه فيها توفيقاً للقاعدة الاسلامية التي هي اسمى وابلغ قاعدةسياسية وهي :« كلكم

راع وكلكم مسؤول عن رعيته » ؟ .

٢ ـ مبحث ماهي الحكومة :

هل هي سلطة امتلاك فرد لجمع ، يتصرف في رقابهم ، ويتمتع باعمالهم ويفعل فيهم بارادته مايشاء ، ام هي وكالة تقام بارادة الامة لاجل ادارة شؤونها المشتركة العامة ؟ .

٣ ـ مبحث ماهي الحقوق العمومية :

هل هى حقوق آحاد الملوك ، ولكنها تضاف للامم مجازا ، ام بالعكس هي حقوق جموع الامم ،وتضاف للملوك مجازا ،ولهم عليها ولاية الامانة والنظارة على مثل الاراضي والمعادن،والانهر والسواحل،والقلاع والمعابد، والاساطيل والمعدات ، وولاية الحدود ، والحراسة على مثل الامن العام،والعدل والنظام، وحفظ وصيانة الدين والآداب ، والقوانين والمعاهدات ،والاتجار ، الى غير ذلك مما يحق لكل فرد من الامة ان يتمتع به وان يطمئن عليه ؟

٤ ـ مبحث التساوي في الحقوق :

هل للحكومة التصرف في الحقوق العامة المادية والادبية كما تشاء بذلا وحرمانا . ام تكون الحقوق محفوظة للجميع على التساوي والشيوع، وتكون المغانم والمغارم العمومية موزعة على الفصائل والبلدان والصنوف والاديان بنسبة عادلة ، ويكون الافراد متساوون في حق الاستنصاف ؟

٥ ـ مبحث الحقوق الشخصية :

هل الحكومة تملك السيطرة على الاعمال والافكار . ام افراد الامة احراراً في الفكر مطلقاً ، وفي الفعل مالم يخالف القانون الاجتماعي ، لانهم ادرى بمنافعهم الشخصية ، والحكومة لاتتداخل الا في الشؤون العمومية ؟

٦ ـ مبحث نوعية الحكومة :

هل الاصلح هي الملكية المطلقة من كل زمام ، ام الملكية المقيدة، وماهي القيود ؟ ام الرئاسة الانتخابية الدائمة مع الحياة او المؤقتة الى اجل ؟.وهل تنال الحاكمية بالوراثة ، او العهد ، او الغلبة ؟ . وهل يكون ذلك كما تشاء الصدفة ، ام مع وجود شرائط الكفاءة ، وما هي تلك الشرائط ، وكيف يصير تحقيق وجودها ، وكيف يراقب استمرارها ، وكيف تستمر المراقبة عليها ؟ .

٧ ـ مبحث ما هي وظائف الحكومة :

هل هي ادارة شؤون الامة حسب الرأي والاجتهاد . ام تكون مقيدة بقانون موافق لرغائب الامة وان خالف الاصلح ، واذا اختلفت الحكومة مع الامة في اعتبار الصالح والمضر فهل على الحكومة ان تعتزل الوظيفة ؟

٨ ـ مبحث حقوق الحاكمية :

هل للحكومة ان تخصص بنفسها لنفسها ماتشاء من مراتب العظمة ، ورواتب المال . وتحابي من تريد بما تشاء من حقوق الامة واموالها ؟ . ام

يكون التصرف في ذلك كله اعطاءً وتحديداً ومنعاً منوطاً بالامة .

٩ ـ مبحث طاعة الامة للحكومة :

هل الارادة للامة وعلى الحكومة العمل ، ام الارادة للحكومة وعلى الامة الطاعة ، وهل للحكومة تكليف الامة طاعة عمياء بلا فهم ولااقتناع، ام عليها الاعتناء بوسائل التفهيم والاذعان لتتأتى الطاعة باخلاص وامانة .

١٠ ـ مبحث توزيع التكليفات :

هل يكون وضع الضرائب مفوضا لرأي الحكومة، ام الامة تقرر النفقات اللازمة وتعين موارد المال ، وترتب طرائق جبايته وحفظه ؟ .

١١ ـ مبحث اعداد المنعة :

هـــل يكون اعداد القوة بالتجنيد والتسليح استعـداداً للدفاع مفوضاً لارادة الحكومة اهمالا ، او اقلالا ، او اكثاراً ، او استعمالا على قهر الامة ، أم يلزم ان يكون ذلك برأي الامة وتحت امرها ، بحيث تكون القوة منفذة رغبة الامة لارغبة الحكومة ؟ .

١٢ ـ مبحث المراقبة على الحكومة :

هل تكون الحكومة لاتسأل عما تفعل ، ام يكون للامة حق السيطرة عليها لان الشأن شأنها، فلها ان تنيب عنها وكلاءلهم حق الاطلاع على كل شيء، وتوجيه المسؤولية على اي كان ، ويكون اهم وظائف النواب حفظ الحقوق الاساسية المقررة للامة على الحكومة ؟ .

١٣ ـ مبحث حفظ الامن العام :

هل يكون الشخص مكلفا بحراسة نفسه ومتعلقاته،ام تكون الحكومة مكلفة بحراسته مقيما ومسافرا حتى من بعض طوارئ الطبيعة بالحيلولة لا بالمجازاة والتعويض ؟ .

١٤ ـ مبحث حفظ السلطة في القانون :

هل يكون للحكومة ايقاع عمل اكراهي على الافراد برأيها اي بدون الوسائط القانونية ، ام تكون السلطة منحصرة في القانون ، الا في ظروف مخصوصة وموقتة ؟ .

١٥ ـ مبحث تأمين العدالة القضائية :

هل يكون العدل ماتراه الحكومة ، ام مايراه القضاة المصون وجدانهم من كل مؤثر غير الشرع والحق ، ومن كل ضغط حتى ضغط الرأي العام ؟ .

١٦ ـ مبحث حفظ الدين والآداب :

هل يكون للحكومة ولو القضائية سلطة وسيطرة على العقائد والضمائر، ام تقتصر وظيفتها في حفظ الجامعات الكبرى كالدين ، والجنسية ، واللغة ، والعادات ، والآداب العمومية ، على استعمال الحكمة ماأغنت عن الزواجر؛ ولا تتداخل الحكومة في امر الدين مالم تنتهك حرمته؛ وهل السياسة الاسلامية سياسة دينية ، ام كان ذلك في مبدأ ظهور الاسلام ، كالادارة العرفية

عقب الفتح ؟ .

١٧ ـ مبحث تعيين الاعمال بقوانين :

هل يكون في الحكومة ، من الحاكم الى البوليس ، من يطلق له عنان التصرف برأيه وخبرته ، ام يلزم تعيين الوظائف ، كلياتها وجزئياتهـــا ، بقوانين صريحة واضحة ، لاتسوغ مخالفتها ولو لمصلحة مهمة ، الا في حالات الخطر الكبير ؟ .

١٨ ـ مبحث كيف توضع القوانين :

هل يكون وضعها منوطاً برأي الحاكم الاكبر ، او رأي جماعة ينتخبهم لذلك . ام يضع القوانين جمع منتخب من قبل الكافة ليكونوا عارفين حتما بحاجات قومهم وما يلائم طبائعهم ومواقعهم وصوالحهم ، ويكون حكمه عاما او مختلفا على حسب تخالف العناصر والطبائع وتغير الموجبات والازمان ؟ .

١٩ ـ مبحث ماهو القانون وقوته :

هل القانون هو احكام يحتج بهـا القوي على الضعيف ، ام هو احكام منتزعة من روابط الناس بعضهم ببعض ، وملاحظ فيها طبائع اكثرية الافراد ، ومن نصوص خالية من الابهام والتعقيد وحكمها شامل كل الطبقات ، ولهـا سلطان نافذ قاهر مصون من مؤثرات الاغراض ، والشفـاعة ، والشفقة ، وبذلك يكون القانون هو القانون الطبيعي للامة فيكون محترما عند الكافة ، مضمون الحماية من قبل كل افراد الامة ؟ .

٢٠ ـ مبحث توزيع الاعمال والوظائف:

هل يكون الحظ في ذلك مخصوصاً باقارب الحاكم وعشيرته ومقربيه ، ام توزع كتوزيع الحقوق العامة على كافة القبائل والفصائل ، ولو مناوبة مع ملاحظات الاهمية والعدد ، بحيث يكون رجال الحكومة انموذجا من الامة ، او هم الامة مصغرة . وعلى الحكومة ايجاد الكفاءة والاعداد ولو بالتعليم الاجباري ؟ .

٢١ ـ مبحث التفريق بين السلطات السياسية والدينية والتعليم :

هل يجمع بين سلطتين او ثلاث في شخص واحد . ام تخصص كل وظيفة من السياسة والدين والتعليم بمن يقوم بها باتقان، ولا اتقان الا بالاختصاص ، وفي الاختصاص ، كما جاء في الحكمة القرآنية : « ماجعل الله لرجل من قلبين في جوفه» ، ولذلك لايجوز الجمع منعا لاستفحال السلطة.

٢٢ ـ مبحث الترقي في العلوم والمعارف :

هل يترك للحكومة صلاحية الضغط على العقول كي لايقوى نفوذ الامة عليها ، ام تحمل على توسيع المعارف بجعل التعليم الابتدائي عمومياً بالتشويق او الاجبار ، وبجعل الكمالي منه سهلا للمتناول . وجعل التعليم والتعلم حرا مطلقاً ؟ .

٢٣ ـ مبحث التوسيع في الزراعة والصنائع والتجارة :

هل يترك ذلك للنشاط المفقود في الامة . ام تلزم الحكومة بالاجتهاد

في تسويل مضاهاة الامم السائرة ، لاسيما المزاحمة والمجاورة ، كيلا تهلك الامة بالحاجة لغيرها او تضعف بالفقر .

٢٤ ـ مبحث السعي في العمران :

هـــل يترك ذلك لاهمال الحكومة المميت لعزة نفس السكان ، او لانها كما فيه اسرافاً وتبذيرا ؛ ام تحمل على اتباع الاعتدال المتناسب مع الثروة العمومية .

٢٥ ـ مبحث السعي في رفع الاستبداد :

هل ينتظر ذلك من الحكومة ذاتها . ام نوال الحرية ورفع الاستبداد رفعاً لايترك مجالا لعودته من وظيفة عقلاء الامة وسراتها ! ؟ .

* * *

هذه خمسة وعشرون مبحثاً ، كل منها يحتاج الى تدقيق عميق،وتفصيل طويل ، وتطبيق على الاحوال والمقتضيات الخصوصية . وقد ذكرت هذه المباحث تذكرة للكتاب ذوي الالبـاب وتنشيطا للنجباء على الخوض فيهـا بترتيب ، اتباعا لحكمة اتيان البيوت من ابوابهـــا . واني اقتصر على بعض الكلام فيما يتعلق بالمبحث الاخير منهـا فقط، اعني مبحث السعي في رفع الاستبداد فاقول :

١ ـ الامة التي لايشعر كلها او اكثرها بآلام الاستبداد لاتستحق الحرية.

٢ ـ الاستبداد لايقاوم بالشدة انما يقاوم باللين والتدرج .

٣ ـ يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد .

هذه قواعد رفع الاستبداد وهي قواعد تبعد آمال الاسراء ، وتسر المستبدين ، لان ظاهرها يؤمنهم على استبدادهم . ولهذا اذكر المستبدين بما انذرهم به الفيارى المشهور حيث قال : « لايفرحن المستبد بعظيم قوته ومزيد احتياطه فكم من جبار عنيد جند له مظلوم صغير » ، واني اقول: كم من جبار قهار اخذه الله اخذ عزيز منتقم .

مبنى قاعدة كون الامة التي لايشعر اكثرها بآلام الاستبداد لاتستحق الحرية هو :

ان الامة اذا ضربت عليها الذلة والمسكنة وتوالت على ذلك القرون والبطون ، تصير تلك الامة سافلة الطباع حسبما سبق تفصيله في الابحاث السالفة ، حتى انها تصير كالبهائم ، او دون البهائم ، ، لاتسأل عن الحرية ، ولا تلتمس العدالة ، ولا تعرف للاستقلال قيمة ، او للنظام مزية ، ولا ترى لها في الحياة وظيفة غير التابعية للغالب عليها ، احسن او اساء على حد سواء ؛ وقد تنقم على المستبد نادرا ولكن طلبا للانتقام من شخصه لاطلبا للخلاص من الاستبداد ، فلا تستفيد شيئا انما تستبدل مرضا بمرض كمغص بصداع .

وقد تقاوم المستبد بسوق مستبد آخر تتوسم فيه انه اقوى شوكة من المستبد الاول ؛ فاذا نجحت لايغسل هذا السائق يديه الا بماء الاستبداد فلا تستفيد ايضاً شيئاً ، انما تستبدل مرضاً مزمناً بمرض حد ؛ وربما تنال الحرية

عفواً فكذلك لاتستفيد منها شيئاً لانها لاتعرف طعمها فلا تهتم بحفظها ، فلا تلبث الحرية ان تنقلب الى فوضى ، وهي الى استبداد مشوش اشد وطأة كالمريض اذا انتكس. ولهذا قرر الحكماء ان الحرية التي تنفع الامة هي التي تحصل عليها بعد الاستعداد لقبولها ، واما التي تحصل على اثر ثورة حمقاء فقلما تفيد شيئاً، لان الثورة غالباً تكتفي بقطع شجرة الاستبداد ولا تقتلع جذورها ، فلا تلبث ان تنبت وتنمو وتعود اقوى مما كانت اولا .

فاذا وجد في الامة الميتة من تدفعه شهامته للاخذ بيدها والنهوض بها فعليه اولا : ان يبث فيها الحياة وهو العلم ، اي علمها بان حالتها سيئة وانما بالامكان تبديلها بخير منها ، فاذا هي علمت يبتدأ فيها الشعور بآلام الاستبداد، ثم يترقى هذا الشعور بطبعـــه من الآحاد الى العشرات ، الى الى . . . ، حتى يشمل اكثر الامه وينتهي بالتحمس ويبلغ بلسان حالها الى منزلة قول الحكيم المعري :

اذا لم تقم بالعدل فينا حكومة فنحن على تغييرها قدراء

وهكذا ينقـذف فكر الامة في واد ظاهر الحكمة يسير كالسيل ، لا يرجع حتى يبلغ منتهاه .

ثم ان الامم الميتة لايندر فيها ذوو الشهامة، انما الاسف ان يندر فيها من يهتدي في اول نشأته الى الطريق الذي به يحصل على المكانة التي تمكنه في مستقبله من نفوذ رأيه في قومه . واني انبه فكر الناشئة العزيزة ان من يرى

منهم في نفسه استعداداً للمجد الحقيقي فليحرص على الوصايا الآتيةالبيان :

١ ـ ان يجهد في ترقية معارفه مطلقا لاسيما في العلوم النافعة الاجتماعيـــة كالحقوق والسياسة والاقتصاد والفلسفة العقلية ،وتاريخقومه الجغرافي والطبيعي والسياسي ، والادارة الداخليـــة ، والادارة الحربية ، فيكتسبمن اصول وفروع هذه الفنون ما يمكنه احرازه بالتلقي وان تعذر فبالمطالعة مع التدقيق .

٢ ـ ان يتقن احد العلوم التي تكسبه في قومه موقعاً محترما وعلميا مخصوصا كعلم الدين والحقوق او الانشاء او الطب .

٣ ـ ان يحافظ على آداب وعادات قومه غاية المحافظة ولو ان فيها بعض اشياء سخيفة .

٤ ـ ان يقلل اختلاطه مع النـاس حتى مع رفقائه في المدرسة وذلك حفظاً للوقار وتحفظاً من الارتبـاط القوي مع احد كيلا يسقط تبعاً لسقوط صاحب له .

٥ ـ ان يتجنب كلياً مصاحبة الممقوت عند الناس لاسيما الحكام ولو كانذلك المقت بغير حق .

٦ ـ ان يجهد ماامكنه في كتم مزيته العلمية على الذين هم دونه في ذلك العلم لاجل ان يأمن غوائل حسدهم ، انما عليـه ان يظهر مزيته لبعض من هم فوقه بدرجات كثيرة .

٧ ـ ان يتخير له بعض من ينتمي اليه من الطبقة العليا ، بشرط : ان لا يكثر التردد عليه ، ولا يشاركه في شؤونه ، ولا يظهر له الحاجة ، ويتكتم في نسبته اليه .

٨ ـ ان يحرص على الاقلال من بيان آرائه والا يؤخذ عليه تبعة رأي يراه او خبر يرويه .

٩ ـ ان يحرص على ان يُعرف بحسن الاخلاق لاسيما الصدق والامانة والثبات على المبادئ .

١٠ـ ان يظهر الشفقة على الضعفاء والغيرة على الدين والعلاقة بالوطن .

١١ـ ان يتباعد ما امكنه من مقاربة المستبد واعوانه الا بمقدار ما يأمن به فظائع شرهم اذا كان معرضا لذلك .

فمن يبلغ سن الثلاثين فما فوق حائزا على الصفات المذكورة، يكون قد اعد نفسه على اكمل وجه لاحراز ثقة قومه عندما يريد في برهة قليلة ، وبهذه الثقة يفعل مالا تقوى عليه الجيوش والكنوز . وما ينقصه من هذه الصفات ينقص من مكانته ، ولكن قد يستغني بمزيد كمال بعضها عن فقدان بعضها الآخر او نقصه . كما ان الصفات الاخلاقية قد تكفي في بعض الظروف عن الصفات العلمية كلها ولا عكس . واذا كان المتصدي للارشاد السياسي فاقد الثقة فقدانا اصلياً او طارئا ، يمكنه ان يستعمل غيره ممن تنقصه الجسارة والهمة والصفات العلمية .

والخلاصة ان الراغب في نهضة قومه ، عليه ان يهيء نفسه ويزن استعداده ثم يعزم متوكلا على الله في خلق النجاح .

* * *

ومبنى قاعدة ان الاستبداد لا يقاوم بالشدة ، انما يقاوم بالحكمة والتدريج هو: ان الوسيلة الوحيدة الفعالة لقطع دابر الاستبداد هي ترقي الامة في الادراك والاحساس ، وهذا لا يتأتى الا بالتعليم والتحميس . ثم ان اقتناع الفكر العام واذعانه الى غير مألوفه ، لا يتأتى الا في زمن طويل ، لأن العوام مهما ترقوا في الادراك لا يسمحون باستبدال القشعريرة بالعافية الا بعد التروي المديد ، وربما كانوا معذورين في عدم الوثوق والمسارعة لانهم الفوا ان لا يتوقعوا من الرؤساء والدعاة الا الغش والخداع غالبا . ولهذا كثيراً ما يحب الاسراء المستبد الاعظم اذا كان يقهرمعهم بالسوية الرؤساء والاشراف ، وكثيرا ما ينتقم الاسراء من الاعوان فقط ولا يمسون المستبد بسوء ، لانهم يرون ظالمهم مباشرة هم الاعوان دون المستبد ، وكم احرقوا من عاصمة لاجل محض التشفي باضرار أولئك الاعوان .

ثم ان الاستبداد محفوف بانواع القوات التي فيها قوة الارهاب بالعظمة وقوة الجند ، لاسيما اذا كان الجند غريب الجنس ، وقوة المال ، وقوة الالفة على القسوة ، وقوة رجال الدين ، وقوة اهل الثروات وقوة الانصار من الاجانب ؛ فهذه القوات تجعل الاستبداد كالسيف لا يقابل بعصا الفكر العام

الذي هو في اول نشأته يكون اشبه بغوغاء ، ومن طبع الفكر العام انه اذا فار في سنة يغور في سنة ، واذا فار في يوم يغور في يوم ، بناء عليه يلزم لمقاومة تلك القوات الهائلة مقابلتها بما يفعله الثبات والعناد المصحوبين بالحزم والاقدام .

الاستبداد لا ينبغي ان يقاوم بالعنف ، كي لا تكون فتنة تحصد الناس حصدا ؛ نعم ، الاستبداد قد يبلغ من الشدة درجة تنفجر عندها الفتنة انفجارا طبيعيا ، فاذا كان في الامة عقلاء يتباعدون عنها ابتداء ، حتى اذا سكنت ثورتها نوعاً وقضت وظيفتها في حصد المنافقين ، حينئذ يستعملون الحكمة في توجيه الافكار نحو تأسيس العدالة ، وخير ما تؤسس يكون باقامة حكومة لا عهد لرجالها بالاستبداد ولا علاقة لهم بالفتنة .

العوام لا يثور غضبهم على المستبد غالباً الا عقب احوال مخصوصة مهيجة فورية . منها :

١ - عقب مشهد دموي مؤلم يوقعه المستبد على مظلوم يريد الانتقام لناموسه .

٢ - عقب حرب يخرج منها المستبد مغلوبا ، ولا يتمكن من الصاق عار الغلب بخيانة القواد .

٣ - عقب تظاهر المستبد باهانة الدين اهانة مصحوبة باستهزاء يستلزم حدة العوام .

٤ - عقب تضييق شديد عام مقاضاة لمال كثير لا يتيسر اعطاؤه حتى على

اواسط الناس .

٥ ـ في حالة مجاعة او مصيبة عامة لايرى الناس فيها مواساة ظاهرة من المستبد .

٦ ـ عقب عمل للمستبد يستفز الغضب الفوري ، كتعرضه لناموس العرض، او حرمة الجنائز في الشرق ، وتحقيره القانون او الشرف الموروث في الغرب .

٧ ـ عقب حادث تضييق يوجب تظاهر قسم كبير من النساء في الاستجارة والاستنصار .

٨ ـ عقب ظهور موالاة شديدة من المستبد لمن تعتبره الامة عدوا لشرفها.

الى غير ذلك من الامور المماثلة لهذه الاحوال التي عندها يموج الناس في الشوارع والساحات ، وتملئ اصواتهم الفضاء ، وترتفع فتبلغ عنان السماء، ينادون : الحق الحق ، الانتصار للحق ، الموت او بلوغ الحق .

المستبد مهما كان غبيا لاتخفى عليه تلك المزالق ، ومهما كان عتيا لايغفل عن اتقائها ؛ كما ان هذه الامور يعرفها اعوانه ووزراؤه .

فاذا وجد منهم بعض يريدون له التهلكة يهوّرونه على الوقوع في احداها، ويلصقونها به خلافا لعادتهم في ابعادها عنه بالتمويه على الناس . ولهذا يقال ان رئيس وزراء المستبد او رئيس قواده ، او رئيس الدين عنده، هم اقدر الناس على الايقاع به ، وهو يداريهم تحذرا من ذلك ، واذا اراد اسقاط

احدهم فلا يوقعه الا بغتة .

لمثيري الخواطر على الاستبداد طرائق شتى يسلكونها بالسر والبطء ، يستقرون تحت ستار الدين ، فيستنبتون غابة الثورة من بذره او بذورات يسقونها بدموعهم في الخلوات . وكم يلهون المستبـــد بسوقه الى الاشتغال بالفسوق والشهوات ، وكم يغررونه برضاء الامة عنه ، ويجسرونه على مزيد التشديد ؛ وكم يحملونه على اساءة التدبير ، ويكتمونه الرشد ، وكم يشوشون فكره بارباكه مع جيرانه واقرانه . يفعلون ذلك وامثاله لاجل غاية واحدة ، هي ابعاده عن الانتباه الى سد الطريق التي فيها يسلكون . اما اعوانه ، فلا وسيلة لاغفـالهم عن ايقاظه غير تحريك اطماعهم المالية مع تركهم ينهبون ماشاؤوا ان ينهبوا .

* * *

ومبـــنى قاعدة انه يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد هو : ان معرفة الغاية شرط طبيعي للاقدام على كل عمل ، كما ان معرفة الغاية لاتفيد شيئاً اذا جهل الطريق الموصل اليها ؛ والمعرفة الاجمالية في هذا الباب لاتكفي مطلقاً ، بل لابد من تعيين المطلب والخطة تعييناواضحا موافقاً لرأي الكل ،او لرأي الاكثرية التي هي فوق الثلاثة ارباع عدداوقوة بأس ، والا فلا يتم الامر ؛ حيث اذا كانت الغاية مبهمة نوعا يكون الاقدام ناقصاً نوعا ، واذا كانت مجهولة بالكلية عند قسم من الناس او مخالفة لرأيهم

فهؤلاء ينضمون الى المستبد فتكون فتنة شعواء ؛ واذا كانوا يبلغون مقدار الثلث فقط ، تكون حينئذ الغلبة في جانب المستبد مطلقاً .

ثم اذا كانت الغاية مبهمة ولم يكن السير في سبيل معروف ، ويوشك ان يقع الخلاف في اثنـــاء الطريق فيفسد العمل ايضاً وينقلب الى انتقـام وفتن ، ولذلك يجب تعيين الغاية بصراحة واخلاص واشهارها بين الكافة ، والسعي في اقناعهم واستحصال رضائهم بها ماامكن ذلك ، بل الاولى حمل العوام على النداء بها وطلبها من عند انفسهم . وهذا سبب عدم نجاح الامام علي ومن وليه من ائمة آل البيت رضي الله عنهم ، ولعل ذلك كان منهم لا عن غفلة ، بل عن مقتضى ذلك الزمان من صعوبة المواصلات وفقدان البوستات المنتظمة والنشريات المطبوعة اذ ذاك .

والمراد ان من الضروري تقرير شكل الحكومة التي يراد ويمكن ان يستبدل بها الاستبداد ، وليس هذا بالامر الهين الذي تكفيه فكرة ساعات ، او فطنة آحاد ، وليس هو باسهل من ترتيب المقاومة والمغالبة . وهذا الاستعداد النظري لايجوز ان يكون مقصوراً على الخواص ، بل لابد من تعميمه وعلى حسب الامكان ليكون بعيداً عن الغايات ومعضداً بقبول الرأي العام .

★ ★ ★

وخلاصة البحث انه يلزم اولا تنبيه حس الامة بآلام الاستبداد ، ثم يلزم حملها على البحث في القواعد الاساسية السياسية المناسبة لها بحيث يشغل

ذلك افكار كل طبقاتها ، والاولى ان يبقى ذلك تحت محض العقول سنين بل عشرات السنين حتى ينضج تماما ، وحتى يحصل ظهور التلهف الحقيقي على نوال الحرية في الطبقات العليا ، والتمني في الطبقات السفلى . والحذر كل الحذر من ان يشعر المستبد بالخطر ، فيأخذ بالتحذر الشديد والتنكيل بالمجاهدين ، فيكثر الضجيج ، فيزيغ المستبد ويتكالب ، فحينئذ اما تغتنم الفرصة دولة اخرى فتستولي على البلاد ، وتجدد الاسر على العباد بقليل من التعب ، فتدخل الامة في دور آخر من الرق المنحوس ، وهذا نصيب اكثر الامم الشرقية في القرون الاخيرة .

واما ان يساعد الحظ بعدم وجود طامع اجنبي ، وتكون الامة قد تأهلت للقيام بان تحكم نفسها بنفسها ، وفي هذه الحال يمكن لعقلاء الامة ان يكلفوا المستبد ذاته لترك اصول الاستبداد ، واتباع القانون الاساسي الذي تطلبه الامة . والمستبد الخائر القوى لايسعه عند ذلك الا الاجابة طوعا ، وهذا افضل مايصادف . وان اصر المستبد على القوة ، قضوا بالزوال على دولته ، واصبح كل منهم راع وكل منهم مسؤول عن رعيته ، واضحوا آمنين ، لايطمع فيهم طامع ، ولا يغلبون عن قلة ، كما هو شأن كل الامم التي تحيا حياة كاملة حقيقية . بناء عليه فليتبصر العقلاء ، وليتق الله المغررون ، وليعلم ان الامر صعب ، ولكن تصور الصعوبة لايستلزم القنوط ، بل يثير همة الرجل الاشم .

ونتيجة البحث ، ان الله جلت حكمته قد جعل الامم مسؤولة عن اعمال

من تحكّمه عليها ، وهذا حق . فاذا لم تحسن امة سياسة نفسها اذلها الله لامة اخرى تحكمها ، كما تفعل الشرائع باقامة القيم على القاصر او السفيه ، وهذه حكمة . ومتى بلغت امة رشدها ، وعرفت للحرية قدرها ، استرجعت عزها ، وهذا عدل .

وهكذا لايظلم ربك احدا ، انما هو الانسان يظلم نفسه ، كما لايذل الله قط امة عن قلة ، انما هو الجهل يسبب كل علة .

واني اختم كتابي هذا بخاتمة بشرى ، وذلك ان بواسق العلم وما بلغ اليه ، تدل على ان يوم الله قريب . ذلك اليوم الذي يقل فيه التفاوت في العلم وما يفيده من القوة ، وعندئذ تتكافأ القوات بين البشر ، فتنحل السلطة ، ويرتفع التغالب ، فيسود بين الناس العدل والتوادد ، فيعيشون بشرا لاشعوبا ، وشركات لا دولا . وحينئذ يعلمون مامعنى الحياة الطيبة : هل هي حياة الجسم وحصر الهمة في خدمته ، ام هي حياة الروح وغذاؤها الفضيلة ؟ ويومئذ يتسنى للانسان ان يعيش كأنه عالم مستقل خالد ؛ كأنه نجم مختص في شأنه ،مشترك في النظام كأنه ملك وظيفته تنفيذ اوامر الرحمن الملهمة للوجدان .

تم الكتاب

محتويات الكتاب

صفحة

كلمة الناشر	١
حياة المؤلف	٢
كلمة المؤلف	٨
المقدمـــة	١٢
ماهو الاستبداد	١٧
الاستبداد والدين	٢٧
الاستبداد والعلم	٤٧
الاستبداد والمجد	٥٧
الاستبداد والمال	٧٥
الاستبداد والاخلاق	٩٥
الاستبداد والتربية	١١٥
الاستبداد والترقي	١٣١
الاستبداد والتخلص منه	١٦٥

تنبيه

وقعت بعض الاخطاء المطبعية يرجى تصحيحها :

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١٢	٣	يتحكك	يحنك
٢١	١٢	متلاصقون متراكمون	متلاصقين متراكمين
٢١	١٤	متفرقون	متفرقين
٥٨	١٠	الى	الا
٦١	٧	خدما	خدمات
٦٥	٤	الشرف	الترف
٧٣	١٧	انقسم	انفسهم
١٣٦	٦	الحق	الحمق
٤٥	٥	اصل الآية الصحيح : « الله الذي خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن »	

كلمة الناشر

ينشر هذا الكتاب للمرة الاولى على العالم العربي منقحاً ومزيداً بقلم المؤلف ، وهو يختلف كثيراً عن النسخة المطبوعة والمتداولة حتى اليوم .

وجدت هذه النسخة المنقحة بين اوراقه حيث قام نجله المرحوم الدكتور اسعد الكواكبي باعتباره اقدر افراد الاسرة الكواكبية على قراءة خط والده بتوضيح ماغمض من معالمها وكتاباتها وبذل في سبيـــل ذلك جهوداً عظيمة ووقتاً طويلاً .

ويهمني ان الفت النظر الى انه قد يجد القارئ في بعض صفحات الكتاب آراء للمؤلف لاتتفق مع الانظمة والافكار السائدة في ايامنا هذه .فيجب ان نلاحظ ان الكتاب الف في عهد السلطان عبد الحميد حيث كانت انظمة الدولة وجميع اجهزتها مهيأة وموجهة لاقرار سلطان الحاكم الظالم المستبد ، فكانت ثورة المؤلف منصبة على كامل جهاز الدولة العثمانية وانظمتها ، وعلى الاستعمار الغربي الذي كان في اوج طغيانه .

وانني بنشر هذا الكتاب ارجو ان اكون قد اديت الامانة للعلم والتاريخ وحققت لجدي رحمه الله احدى رغباته في خدمة الاسلام والعروبة والله من وراء القصد .

حلب عام ١٩٥٧

عبد الرحمن الكواكبي
دكتور في الحقوق